وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب



رحلات من دمشق إلى القدس

أحمد سامح الخالدي

تقديم وإعداد وضبط:
خيري الذهبي

آفاق ثقافية مقدسية

الكتاب الشهري ٧٣

خيري الذهبي

- روائي سوري .
- مهتم بشؤون الأدب والترجمة والدراسات.
- له اهتمامات خاصة في علم التاريخ.
- يشرف الآن على سلسلة آفاق ثقافية دمشقية.

رحلات من دمشق
إلى القدس

آفاق ثقافية مقدسية

رحلات من دمشق إلى القدس

أحمد سامح الخالدي

تقديم وإعداد وضبط

خيري الذهبي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٠٩

آفــاق ثقافيــة مقدسية

العـدد (٧٣)

أيـار ٢٠٠٩

طبعت الطبعة الأولى عام ١٩٤٦م

عن هؤلاء الرحالة الرائعين

خيري الذهبي

في كتابنا هذا شكل جديد من أدب الرحلات والرحلات الدينية تحديداً، أي الشكل المبسط من الحج، والحج طقس موجود في الكثير من الأديان، أما في الدين الإسلامي فقد اختص التعبير بالرحلة في زمن معين إلى أمكنة معينة في مكة بدءاً من الكعبة المشرفة حتى عرفات ومنى، ولكن الزيارات الدينية في العصور الوسطى الإسلامية لم تكن إلى الحجاز فقط، بل إلى أماكن كثيرة اشتهرت بالقدسية، وخاصة في فلسطين، وما الأمنية التي كنت أسمعها طفلاً حين كانوا يقولون: يرزقك حجة، وتقديسة، وزيارة الست نفيسة. والتقديسة هنا هي زيارة القدس وزيارة قبور الأنبياء والصالحين الكثر في فلسطين.

والحق إن معظم كتب الرحلات في الأدب العربي هي كتب عن الحج والتقديسة أولاً، ثم ما يستجد على طريق الرحلة، وما يستجدُّ

هنا قد يصل إلى ثلاثين سنة ونيف من الرحلات عبر الشرق والغرب والجنوب كما فعل ابن بطوطة والذي بدأ رحلته حاجًّاً، أو....إلى مصر والشام وشمالي أفريقيا طبعاً كما فعل ابن جبير وكثيرون آخرون.

على أية حال، فكتابنا هذا هو كتاب عن رحلات دينية إلى فلسطين قام بها ثلاثة أعلام هم عبد الغني النابلسي الصوفي والشاعر والمؤلف الشهير، و... مصطفى البكري الصديقي، وهو باحث ورحالة، وتلميذ للنابلسي، ومصطفى أسعد الدمياطي.

أما النابلسي فهو عبد الغني بن اسماعيل، بن عبد الغني النابلسي الذي ولد ونشأ في دمشق، ويغلب على ظني بسبب من لقبه أنه أحفاد من أولئك النابلسيين الذين وفدوا إلى دمشق أثناء الحروب الصليبية مع بني قدامة هرباً من الخضوع لحكم الصليبيين، فأُقطعوا ضاحية قريبة من دمشق هي التي ستسمى فيما بعد بالصالحية....

على أية حال فالنابلسي وهو أشهر رحّالتنا الثلاثة هؤلاء ولد في دمشق في العام ١٠٥٠ هـ وتوفي في العام ١١٤٣هـ أو ١٦٤١-١٧٣١م أي أنه ولد في ذلك العصر العاصف من الزمن العثماني الذي ران فيه الجمود على المنطقة، فانحطّت اللغة العربية، وهذا ما سنراه في النصوص

الشاهدة التي سنقرأها في كتابنا هذا، وانحطَّت الاهتمامات والنظرة النقدية، فسنراهم يزورون قبراً لنبي يهودي اسمه العزير أو عزرا وقبراً لنبي يهودي اسمه شموئيل... الخ.

هل كانوا على حق في انفتاحهم على الرموز اليهودية، أم أنَّا نحن أبناء القرن العشرين الذين عانوا من العدوان اليهودي - الصهيوني المدعوم من الغرب لم نعد نحتمل هذا الانفتاح وأنا واحد ممَّن لا يحتملون ولا يحبُّون هذا الانفتاح، ولكني أترك الأمر للقارئ.

النابلسي هذا كان شاعراً، وصوفياً، وعالماً بالدين والأدب، وكان مكثراً في التأليف والتصنيف، وكان صوفياً معروفاً رحل إلى بغداد، وعاد إلى سورية فتنقل في فلسطين ولبنان، ثم سافر إلى مصر والحجاز، واستقرَّ أخيراً في دمشق حيث توفي بها.

ترك كثيراً من الكتب التي سنذكر منها (الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية) و(تعطير الأنام في تعبير المنام)، وكتاباً في (علم الفلاحة)، وكتاب (نفحات الأزهار على نسمات الأسحار) و...(إيضاح الدلالات في سماع الآلات) وهو كتاب من الواضح أنه في الموسيقى، و(حُلَّة الذهب الإبريز في الرحلة إلى بعلبك وبقاع العزيز) و...(شرح فصوص الحكم لابن عربي)، و(خمرة الحان)، و(خمرة بابل وغناء البلابل) وهما ديوانان

من شعره الصوفي، وديوان الحقائق، و... كتاب غريب هو: (الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان)!!! والدخان هاهنا هي السجائر بالطبع، ويبدو أنَّ هذا الموضوع كان حامياً ومايزال فقهياً حامياً حتى الآن ولا ننسى أنَّا نتكلم عن القرن الثامن عشر أي بعد اكتشاف أمريكا وتصديرها التبغ إلى العالم القديم بأكثر من قرنين ونكتفي بهذا العدد من الكتب وهناك الكثير من الكتب الأخرى.

مضى عبد الغنى النابلسي الرحَّالة الشاعر الصوفي إلى فلسطين فقام بالتقديسة وزار الأماكن المقدسة وترك لنا في كتابه هذا وثيقة اجتماعية عن فقد الأمن وعن عتوِّ الأعراب وقاطعي الطرق في ذلك الحين، وعن لا مبالاة السلطة الإدارية بما يجري خارج المدن، وفي ذلك الحين وضع البديري كتابه الهام ومذكراته التي عمادها اضطراب الأمن على طريق الحج إلى مكة وطغيان البدو، وعدوانهم الفظيع على الحجاج.

وفي رحلات النابلسي سنرى تسجيلاً للحياة الثقافية في فلسطين، ووصفاً للمساجد والزوايا والمطابخ والأطعمة والحمامات، وحديثاً عن البدو والقبائل التي مرَّ بها، وذكراً للمسافات بين المدن والقرى، وضبطاً لأسماء الأماكن بالكلمات حين يرى ذلك ضرورياً، فبحيرة الحولة مثلاً كانت تسمى في زمن الرحلة (قَدَسْ) و(المنيَّة).

كما كان يورد بعض النكات لإدخال المتعة إلى نفس القارئ، وأورد أشعاراً وأراجيز، وبعض شعر في الفارسية مع ترجمة لها، وخمّس وذيّل أشعاراً، وقال مواليًّا أيضاً واستعان بالمصادر الموثوقة للاستشهاد بها في رواية أخباره إثباتاً ونفياً، كاستعانته بكتاب (إتحاف الأخصّا) للسيوطي، وكتاب (الزيارات) للهروي، وكتاب (تاريخ الدول) للقرماني، و(تاريخ الإسلام) لابن قاضي شهبا.. إلخ.

وعلى العموم كانت رحلة النابلسي مفيدة للقارئ المهتم بالتاريخ، وللمهتم بالجغرافيا، وللمهتم بالأنثروبولوجيا، وللمهتم بالنباتات البرية والأشجار والأزهار.

الرحلة الثانية كانت لتلميذ النابلسي ومريده مصطفى البكري الصديقي ومن الواضح أنه منسوب إلى سلالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، هذا الرجل ولد في دمشق في العام ١٠٩٩هـ وتوفي في العام ١١٦٢هـ أو ١٦٨٨-١٧٤٩م والرجل متصوف على الطريقة الخلوتية، فهو متصوف عالم أكثر من التصانيف على طريقة معلمه النابلسي، ولكنه اختلف عنه في أنَّه سكن في القدس بعد زيارته لها وتزوج فيها، وألَّف كثيراً من كتبه وأكثر هذه الكتب كانت في التصوف، وعن التصوف، وربما كان شرطاً من شروط التصوف

السياحة، ولهذا نقرأ عن السائحين في سبيل الله وعن السوّاح إلخ...

زار البكري القدس عام ١٠٢٢هـ أي أنه كان في الثالثة والعشرين من عمره حيث تزوج وجاور المسجد الأقصى وبدأ رحلة التأليف والسياحة لأنه بعد إقامته في القدس وإنجابه سافر إلى حلب، ثم إلى بغداد، ثم مصر، فالقسطنطينية، فالحجاز، ومات بمصر في العام ١٧٤٩م أي في أوائل الستينيات من العمر.

له من المؤلفات المخطوطة مجموعة رسائل عن رحلاته وهذه الرسائل التي تشمل (الخمرة المحسية في الرحلة القدسية)، و.. (الخطرة الثانية الأنسية للروضة الدانية القدسية)، و...(برء السقام في زيارة برزه والمقام) (وهي قرية برزه التي أصبحت حياً في دمشق الآن وفيها مقامات منها مقام لإبراهيم الخليل)، و(الحلة الذهبية في الرحلة الحلبية)، و(الحلة الحقيقية لا المجازية في الرحلة الحجازية وأرد أن حلة الإحسان في الرحلة إلى جبل لبنان)، و(الحلوة الرضوانية الإنجازية الدانية، في الرحلة الحجازية الثانية)، و(العرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية).

وله أيضاً في المحاججة كتاب: (السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد). و(الذخيرة الماحية للآثام في الصلاة على خير

الأنام)، و.... (له منظومة الاستغفار والمنهل العذب لورّاده في ذكر صلوات الطريق وأوراده)...

وله كما يقول قصائد تربو على اثني عشر ألف بيت... وقبل أن نختم حديثنا عن هذا الممثل الرائع لمثقفي عصره علينا أن نتذكر أن ديوانه الأكبر والذي طبع في مصر هو ذكر صلوات الطريق وأوراده، فأيّ رعب كان يعيش هؤلاء الناس في رحلاتهم المذعورة من قاطع طريق أحمق، أو من صحراء مضيعة، أو جوع وعطش وموت في طريق مضِلَّة ومع ذلك فتاريخهم كان تاريخ رحلاتهم ومعايناتهم.

والرحلة الرابعة كانت لمصطفى الدمياطي وهو رجل من دمياط في مصر، رحل من دمياط واخترق سيناء المخوفة في ذلك الحين إلى غزة ففلسطين فدمشق، فجبل لبنان وقبرص، وأهمية هذه الرحلة في أنها تأتي بعد الرحلتين السابقتين زمنياً، فهي مكملة لهما، وإذا ما عرفنا أنَّ النابلسي قد قام برحلته في أواخر القرن السابع عشر أي في السنّ التي تمكنه من الرحيل الشاق، وأنَّ البكري قد قام برحلته في أوائل القرن الثامن عشر أي بعد سكناه القدس وتزوجه فيها، وعرفنا أنّ الدمياطي قد قام برحلته في العام ١٧٣٠م استطعنا أن نقول إنّ لدينا توثيقاً لفلسطين والقدس لنصف قرن حاشد بالصعوبات هو نهايات السابع عشر وبدايات الثامن عشر.

والآن.... وبعد كل هذا التقديم عن هؤلاء الرحالة، فماذا عن مؤلفنا من القرن العشرين.

أحمد سامح الخالدي

ولد الخالدي عام ١٨٦٩ وتوفي ١٩٥١ وخدم الرجل التربية خدمة جلّى إذ بدأ في ذلك مفتشاً في إدارة معارف فلسطين لكنَّ أهميته اتضحت حين عمل في إدارة الكلية العربية (دار المعلمين) منذ عام ١٩٢٥ وحتى ١٩٤٨.

لأحمد سامح الخالدي عدد كبير من الكتب في التربية وعلم النفس، ألّف أكثرها، وترجم بعضها، ثم كتب في التاريخ على سبيل الهواية (أهي الهواية ، أم الخوف على الهوية) فوضع كتاباً عن رجال الحكم والإدارة في فلسطين منذ العهد الراشدي وحتى القرن الرابع عشر الهجري طبع في القدس ثم كتاب (أهل العلم بين مصر وفلسطين) وطبع في القدس عام ١٩٤٦، ثم المعاهد المصرية في بيت المقدس طبع في القدس، و... أهل العلم والحكم في ريف فلسطين ثم حقّق كتاب الإعلام بفضائل الشام وطبع في يافا.

ولكن الموضوع الذي عني به عناية خاصة كان في حقل تاريخ التربية وهو دراسة تناولت تاريخ المعاهد الإسلامية، ومازال الدراسة أوراقاً تحتاج إلى من يرتبها ويعدّها للنشر.

وعن الخالدي مربياً تقول الموسوعة الفلسطينية: إنه قد طبق نظريته التربوية، أي اختيار الطلبة المتفوقين والاعتناء بهم، وفرزهم عن أقرانهم غير المتفوقين، وقد أثبتت هذه النظرية جدواها في تخريج أفواج من الأدباء والأساتذة البارزين منهم إحسان عباس وتوفيق صايغ، وجبرا إبراهيم جبرا، وخيري حماد، وذوقان الهنداوي، وعبد اللطيف الطيباوي وناصر الدين الأسد، ونقولا زيادة، ومحمد يوسف نجم، ووليد عرفات وغيرهم.

ومن آراء الخالدي التربوية أنَّ ديمقراطية التعليم مضيعة للوقت، فهو يرى أنَّ صرف اهتمام متساو لجميع التلاميذ دون تخصيص النابهين منهم بعناية على حدة هو عبث لا طائل تحته، وهو مضرٌّ بالتعليم حتى أنه يرى أنَّ التعليم الثانوي لم يجعل لجميع التلاميذ.

وهو يأخذ على التعليم الأمريكي مسايرته للمتوسطين من التلاميذ على حساب النابهين فهو مقصِّر بحق النابهين إذ يجعل الجميع أوساطاً ولا يفيد الضعاف والمتوسطين كثيراً.

هذا هو أحمد سامح الخالدي الذي قدَّم لنا كتابه عن الرحلات التي قام بها النابلسي والبكري والدمياطي إلى القدس، وهو كتاب مفيد للجيل الجديد من القارئين يعرفون من خلاله أهمية القدس والأماكن المقدسة فيها في الذاكرة الإسلامية والمسيحية والعربية.

كلمة موجزة

من محاسن الصدف أن يتميز النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري (السابع عشر) بأربع رحلات قام بالأولى منها الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي في سنة ١١٠١هـ - ١٦٨٩م، وبالثانية والثالثة الشيخ مصطفى البكري الصديقي الدمشقي في ١١٢٢هـ- ١٧١٠م و ١١٢٦هـ - ١٧١٤م وبالرابعة الشيخ مصطفى أسعد الدمياطي سنة ١١٤٣هـ و ١٧٣٠م.

ولا ينتظر القارئ أن يقرأ رحلات كرحلة المقدسي أو ابن جبير أو ابن بطوطة لأن رحلاتنا هذه انحصر مجالها في شبه جزيرة سيناء وفلسطين ودمشق وقسم من جبل لبنان وقبرص وهي ترمي ضوءاً على حالة البلاد والأمن في هذا القرن الغامض وعلى بعض رجاله ومشاهده ومؤسساته.

* * *

وعبد الغني النابلسي قطب مشهور وهو أستاذ مصطفى البكري الصدِّيقي الذي سكن القدس مدة وتزوج فيها وألف فيها كثيراً من كتبه أكثرها في موضوع التصوف كما أن البكري هو أستاذ الدمياطي فالرحلات من هذه الناحية حلقة واحدة مرتبطة الأطراف تتمِّم الواحدة الأخرى.

وقد طبعت الأولى في مصر سنة (١٩٠٢)[١] أما الثانية والثالثة والرابعة فلا تزال مخطوطة، وسننشر رحلة الدمياطي كاملة في القريب.

وتشمل الأولى وصفاً لرحلة من دمشق إلى بيت المقدس وما حواليه ذهاباً وإياباً كما تشمل الثانية والثالثة سفرة من دمشق إلى بيت المقدس وما حواليه ووصفاً للساحل الفلسطيني. وكان الوزير رحب[٢] باشا والياً مدبراً في القدس يوم زارها البكري وقد نشأت بينهما صداقة.

أما الرابعة فابتدأت من دمياط واخترق الدمياطي شبه جزيرة سيناء فغزة فالرملة فيافا فالقدس وما حواليها ثم رجوعا إلى دمشق فصيدا فقبرص.

---

(١) طبعها ديمتري أفندي نقولا بمطبعة جريدة الإخلاص.

(٢) ربما كانت رجب فهذه التسمية أقرب إلى المألوف.

ولا يخفى أنَّ بلاد المشرق (فلسطين والشام والعراق والحجاز) كانت محطّ الرحال طيلة القرون المختلفة. فمن الرحالة العرب أو المسلمين الذين سجلوا رحلاتهم المقدسي البشاري (٣٧٥هـ) وناصري خسرو (٤٣٨هـ) وابن أبي بكر العربي (٤٨٥هـ) والهروي (٥٦٩هـ) وابن جبير (٥٨١هـ) وعبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر (٥٩٥هـ و ٥٩٨هـ) ودخل القدس للقاء صلاح الدين بعد الهدنة وابن بطوطة (٧٢٥هـ) وأوليا چلبي (١٠٥٩هـ المرة الأولى و ١٠٨١هـ المرة الثانية).

وكانت فلسطين في القرن الثاني عشر الهجري تحت الحكم العثماني وكان الأتراك العثمانيون بعد ما فتحوا سوريا في معركة مرج دابق شمالي حلب (٩٢٢هـ-١٥١٧م) فقضوا على دولة المماليك الشراكسة، وقتل فيها قانصوه الغوري آخر ملوكهم، قسموا ديار الشام إلى ولايات وجعلوا على رأس كل ولاية والياً أو كافلاً من قبلهم، منها ولاية حلب، ودمشق وطرابلس الشام، ثم صيدا وغزة. وكانت القدس تتبع غزة أحياناً ودمشق أحياناً أخرى، أما البلاد فكانت تحكم بالفعل حكماً إقطاعياً، كحكم المعنيين والشهابيين في لبنان ومنطقة صفد، وآل طرباي الحارثيين في منطقة اللجون بما فيها جنين، الخ. الخ.

أما المدن فكانت أكثرها مسورًة وكان في كل منها حاكم أو والٍ يعينه والي الشام أو حاكم غزة وكان بين أعيان المدن وشيوخ البر روابط تقوم بالأكثر على أساس الحزبين الأساسيين في البلاد وهما الحزب القيسي والحزب اليمني. وشعار الأول اللون الأحمر والثاني اللون الأبيض.

والمتتبِّع لجميع هذه الرحل، يرى أن الأمن لم يكن مستتباً خارج المدن الكبرى، وكان شيوخنا النابلسي، والبكري، والدمياطي، يتغلبون على رعبهم بقراءة الأوراد، ومع هذا فقد كان السفر بين دمشق وبيت المقدس منتظماً، فيسافرون جماعات في قوافل أو ركب يرافقهم غفر، بل كان البريد ينقل مع هذه القوافل حتى أن الشيخ عبد الغني استلم في رجوعه إلى دمشق وهو في نابلس ثلاث رسائل. على أنَّ الحكام كانوا يضربون بيد من حديد على قطّاع الطرق، بل كان الركب يصطدم أحياناً بقطّاع الطرق كما حدث مع الشيخ البكري فيتغلب عليه. أو كان المسافرون إذا علموا بكمين غيّروا الطريق أو قد ينحرفون عن الجادة العامة تحاشياً لدفع «المكس» أو «الخاوة» أو «الخفر» أو يأخذون مرسوماً من شيوخ الإقطاع للانتقال من منطقة إلى أخرى.

ومع أنَّ الحكم كان إقطاعياً وكان الأمراء ينصرفون بالأكثر إلى المنافسات، وكان حكم الدولة اسمياً، إلا أنَّ البلاد كانت عامرة في نواحٍ كثيرة بالرغم مما انتابها من ويلات الحروب المتتالية. فقد كانت نابلس وجبالها تشتهر بزيتونها وأترجِّها وخرّوبها والخليل بكرومها وعنبها وبيت لحم بسبحها ويافا ببساتينها اليانعة والرملة بأشجارها الباسقة الخ. وكانت الحركة العلمية متمركزة في المسجد الأقصى ببيت المقدس وما بقي حواليه عامراً من المدارس والمعاهد سواء ما أنشئ في عهد المماليك كالمدرسة السلطانية والنحوية والزاوية الأدهمية والمدرسة القرقشندية والمدرسة الغادرية أو ما أنشئ في عهد الدولة العثمانية كالزاوية المولوية. وكانت تكية خاصكي سلطان مركزاً لتوزيع الطعام على الفقراء كما لا تزال حتى الآن. وقد نزل الشيخ عبد الغني نفسه في المدرسة السلطانية في القدس. وقد وصفها لنا وصفاً دقيقاً. وكان ربُّ الخروب «دبس الخروب» يصنع في نابلس وجبالها فقد جاء ذلك عرضاً في رحلة الشيخ عبد الغني كما ذكر ذلك ابن بطوطة قال:

«ومدينة نابلس هي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطرِّدة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب إلى دمشق وغيرها.

وكيفية عملها أن يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الربُّ فتصنع منه الحلواء ويجلب ذلك الربُّ أيضاً إلى مصر والشام، وبها البطيخ المنسوب إليها وهو طيِّب عجيب».

ثم إن السالك غرب نابلس مثلاً متجهاً إلى قلقيلية في محاذاة وادي عزّون لا يزال يشاهد أشجار الخروب على الجبال والمنحدرات وقد تلف القسم الأكبر منها من رعي الماعز واختلال الأمن وتوالي الحروب والمنازعات في القرون المتأخرة ويقال مثل ذلك في قضاء جنين الخ.

ويا حبذا لو أن النابلسي والبكري والدمياطي وصفوا لنا البلاد وصفاً موضوعياً أكثر مما فعلوا. ولكن هؤلاء الثلاثة هم من شيوخ التصوف، ومن البديهي أن يقصدوا من سياحتهم الزيارة والتبرك، وإذن فقد انصرف همهم الأول إلى زيارات الأماكن المقدسة وقبور الأنبياء والصحابة والتابعين والأقطاب، حتى أنَّهم تجنبوا بالفعل الاتصال بالناس والتحكّك بهم إلا رجال الطرق وما أشبه. فكانوا يقضون أكثر أوقاتهم في التعبد وقراءة الأوراد والاجتماع بالأقطاب والمتصوفين فقد كان هؤلاء هم قطب الرحى في ذلك القرن وما بعده.

* * *

رحلة

«الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي»

ابتدأت رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي التي أسماها «الحضرة الإلهية في الرحلة القدسية» في اليوم السابع عشر من جمادى الثانية سنة ١١٠١هـ - ١٦٨٩م واستغرقت خمسة وأربعين يوماً ذهاباً وإياباً وإقامةً في القدس والخليل ونابلس. وانتهت في يوم الأربعاء أول شهر شعبان المبارك ١١٠١هـ-١٦٨٩م.

ومكث الشيخ في سفرته من دمشق إلى القدس ستة عشر يوماً منها خمسة أيام قضاها في نابلس. وهذه المسافة تقطع الآن بثمان ساعات في السيارة وساعة وربع بالطيارة.

وخرج من دمشق بعد أن زار المقامات فمرّ على جبل قاسيون فالمزة لزيارة قبر دحية الكلبي الصحابي ثم توجه إلى داريا فزار قبر سليمان الداراني وأبي مسلم الخولاني وبلال الحبشي المؤذن.

ووصل إلى خان الشيح وقطع الجسر على نهر الأعوج، متوجهاً إلى قرية سعسع، فنزل في تكيّتها، ثم دخل قرية القنيطرة ونزل في تكيّتها أيضاً. وهذه التكايا مؤسسات عرفت بهذا الاسم في العهد التركي، وهي أماكن معدَّة لنزول الواردين والمسافرين. يقدَّم في بعضها الطعام حسب نصّ واقفها أو شرط بانيها. وهي تشبه الربَط أو الزوايا أو الخوانق من بعض الوجوه. وقد يستعمل الشيخ كلمة تكية أحياناً بدلاً من خان أو نزل أو فندق.

واستمر الشيخ في سفرته فأشرف على قبة الشيخ (أبي الندى) ومرّ بقرب قبر عكاشه ومحصن الصحابي فقرأ لهما الفاتحة. ثم وصل إلى غدير ماء طافح وصحراء مخضرة. فنزل بالقرب من جسر بنات يعقوب ولا ينسى أنَّه رأى بذلك المكان لعلعاً أحمر نابتاً.

ثم يشرف على جسر بنات يعقوب المبني بالأحجار ويمر بالخان ويقطع الجسر الذي فوق نهر الأردن ثم يصعد في تلك المروج الخضراء ويبيت تلك الليلة قاطع الجسر.

ويتابع سيره فيقطع الفيافي النضرة والأراضي الخضرة إلى أن يصل جبّ يوسف[1] فيشرب من مائه الزلال بعد أن يدلي فيه

---

(١) يبعد خان جب يوسف نحو خمسة كيلو مترات في جنوبي غرب الجاعونة إلى الغرب من الطريق المعبدة العامة.

الدلاء ويزور قبر الشيخ عبد اللّه وعليه قبة لطيفةٌ، وهو على حافة الطريق وفي الجانب الآخر من الطريق بركة ماء واسعة الأطراف. وهناك خان عامر البناء يأمن فيه من يخاف. وعلى جبٍّ يوسف قبة لطيفة وبالقرب منه مسجد لطيف.

ويسير حتى يصل وقت العصر (خان المنية)[1] وينزل في تلك المروج ولا يفوت الشيخ رغم انشغاله بذكر اللّه، أن يرى زهراً يسمى (الكلخ) طويل الساق لطيف الاتساق على حد تعبيره. والمنية وبعضهم يصفها المنيّة بالتشديد هي بحيرة طبريا. ويمشي بحذاء تلك البركة (البحيرةْ) ويرى في وسط البركة حجر النملة المشهور وينشد مع القائل:

اقنع فلا تبقى بلا بلغة

وليس ينسى ربُك النملة

إن أقبل الدهر فقم قائماً

وان تولّى مدبراً نم له

---

(١) يقع بالقرب من الطابغة إلى الشرق من الطريق المعبدة الموصلة إلى طبريا.

ثم يقطع تلك العقبة فلا يمر بمدينة طبريا[1] ويفارق المنية حتى ينزل في أرض مخضرة لطيفة الجنيات فيها بئر ماء من ماء الأمطار ويسير فيقبل على تكية عيون التِّجار - وهي خراب الآن تقع قبالة جبل طابور - بكسر التاء وتخفيف، لغة في التجار. وبضم التاء وتشديد الجيم جمع تاجر. وهو منزل حسن ومنه يفرق المسافر الذاهب إلى مصر إلى جهة الغرب والذاهب إلى القدس إلى جهة الشمال (كذا) (الجنوب). ويستمر حتى ينزل بقرية الناعورة[2] وألوية الزهور مرفوعة فيما بيننا منشورة.

وينزل قبالة قرية (جلمة) - وهي شرق المقيبلة - عند بئر الماء والشجرة المنفردة هناك، ويستمر في سيره إلى أن يقبل على بلدة جينين (جنين الآن).

ويقيم بجينين ويزور فيها ضريح الشيخ عز الدين[3] الذي يقال له أبو حمراء. كما يزور مدافن الأمراء بيت طرباي الذي

---

(١) كانت الطريق من جسر بنات يعقوب جنوبا لا تمر بمدينة طبريا بل تتجه إلى الغرب وتمر عن حطين فخان التجار. (عمَّره سنان باشا).

(٢) قرية إلى الشرق من سولم.

(٣) قد يكون أحد رجال صلاح الدين.

كانت بلدة جينين في أيديهم[1] والشيخ غنايم أخو غنيم المجذوب العجلوني (وهو شرقي الجامع الكبير).

---

(١) جاء في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي ج١-ص٢٢١ الأمير أحمد بن علي الحارثي أمير اللَّجون من قبيلة حارثة ينتهي نسبهم إلى طي. وهؤلاء القوم لهم قدم في الإمارة مازالوا في جينين وما والاها من البلاد ولهم العزة والحرمة. ولي أحمد هذا في مبدأ أمره حكومة صفد ثم حكومة اللَّجون، بعد موت أبيه طرباي في سنة ١٠١٠هـ ووقع بينه وبين فخر الدين بن معن حروب كثيرة. وكان ابن معن توجه إلى بلادهم ثلاث مرات للمحاربة ورحل ابن طرباي إلى الرملة. وكان في كل مرة يكسر عسكر ابن معن ويدحضه وأشهر وقعاته معه وقعة يافا وكان هو وحسن باشا حاكم غزة والأمير محمد ابن فروخ أمير نابلس فقتل من جماعة ابن معن مقتلة عظيمة وغنم غنيمة وافرة جداً. وكان حافظاً للعهد فقد لاذ ابن سيفا إلى محل حكومة ابن طرباي هرباً من ابن جانبولاذ فأكرمه، وكان مع ابن سيفا سبعة من رجاله وأموالاً وذخائر عظيمة فطلب ابن جانبولاذ من ابن طرباي برسالة أن يقتل ابن سيفا وله ما معه من المال وإلا عوقب. فرفض وأكرم ابن سيفا وزاد في ذلك وأهداه خيولاً. وأقام ابن سيفا عنده أياماً إلى أن راسل عسكر الشام ليقدموا إليه. وتجهَّز معهم وأتى من طريق حوران إلى دمشق. وتوفي الأمير أحمد (١٠٥٧هـ) وولي الحكومة بعده ابنه زين ثم أخوه محمد توفي (١٠٨٢هـ) ودفن بجينين وقام من بعده ابن أخيه زين ثم صالح ويوسف بن علي بن عمتهم إلى سنة (١٠٨٨هـ) خرجت الحكومة منهم ووليها أحمد باشا الترزي الدمشقي».

واجتمع بالشيخ اسماعيل اليعبدي ودعاه إلى قريته يعبد، فقبل الشيخ الدعوة وسار فمرَّ بقرية يعبد، وزار فيها قبر الشيخ نصر اللّه اليعبدي من ذرية الشيخ عبد القادر الكيلاني.

ثم تابع سيره في سفرته الطويلة الشاقة فمر على قرية عرَّابة وزار فيها نبي اللّه (اعرابيل) من أولاد يعقوب وهو مزار لطيف عليه قبة عظيمة وله باب وغلق. وزار أيضاً قبر محمد الشمالي وهو في القسم الغربي من عرّابة يحيط به مسجد قديم.

ثم اتجه جنوباً إلى شرق فمر على (فحمة) وزار فيها قبر الشيخ (المساب) ثم استمر في سيره جنوباً إلى شرق فمرَّ على (عجة)وزار فيها نبي اللّه (عجيج) ثم اتجه إلى الغرب فمر بقرية (الرامة) فزار النبي (حزقيل) واتجه جنوباً إلى شرق فمر عن قرية السيلان (السيلة - سيلة الظهر) ثم إلى الشرق شمالاً فمر بقرية (اللاوية) وزار قبر النبي لاوين وزار في طريقه رجال الظهرات (يعرف مقامهم الآن باسم القبيبات) وهم شهداء مشهورون وعليهم قبة مبنية على رأس جبل مطل على الطريق ووصل بعد ذلك (بر قة) ومرّعلى قرية (سبسطية) ويقول الهروي إنَّ بها قبر يحيى بن زكريا وقبر أمه اليسع وقبر شداد بن أوس (قبر شداد بن

أوس الصحابي بباب الرحمة ببيت المقدس) ولما فتح حسام الدين بن عمر لاجين نابلس وصل إلى سبسطية وكان الإفرنج قد حوّلوا المقام كنيسة فأعاده مشهداً كما كان.

وخرج الشيخ من سبسطية فزار في طريقه قبر الشيخ شعلة ومقام الشيخ أبي القاسم الجنيد (٢٩٧هـ) واستمرّ إلى أن وصل نابلس. ويقول عنها كما قال الحنبلي صاحب الأنس الجليل (٩٠١هـ) (وهي كثيرة الأعين والأشجار والفواكه ومعظم الأشجار في ضواحيها الزيتون. وفي نابلس كثير من السامرة (السمرة[1]) ولما أقبلنا على تلك الطواحين المحفوفة بالمياه والبساتين سرنا ودخلنا المدينة وقت الغروب). ويستدلُّ من هذا أنَّ الطواحين التي يراها المسافر الآن بقرب الطريق العامة خراباً، كانت عامرة في زمنه.

وابتدأ تجواله في نابلس فزار فيما زار قبر بشر الحافي[2] من رجال الرسالة القشيرية.

ومرَّ على قبة السبيل خارج المدينة فقال: (وهي قبة عظيمة البناء على الشكل المبني في الهواء يصعد إليها بدرج من داخلها

---

(١) السمرة أو السامرة فصيل من اليهود انشقوا عن الأرثوذكس الحاخاميين منذ زمن باكر يرفضون التلمود، ولا يؤمنون إلا بالأسفار الخمسة الأولى من التوراة.

(٢) يقع قبره في محلة الحبلة ونسبة هذا القبر لهذا الصوفي غير صحيح.

ولها شبابيك مطلة على ذلك المرج وتحتها بركة ماء). ثم إلى الجامع الكبير الذي فيه مكان يسمى المارستان[1].

ثم دخل الحمام اللطيف الجليل الذي يسمَّى الخليل. ومن مفاخر المدنية العربية الإسلامية شيوع الحمامات، فيندر أن تجد مدينة لا تجد فيها الحمامات العامة. وكانت هذه الحمامات تؤلف جزءاً أساسياً عند بناء المدارس أو الربط أو الزوايا أو الخوانق أو البيمارستانات أو القصور. ولقد كشف الأثريون في خربة المفجر شمالي أريحا قصراً لهشام بن عبد الملك الأموي وهو من مفاخر بني أمية حوى من الحمامات المتقنة المزكّة[2] والمزَّينة جدرانها بالنقوش البديعة من الجص وقد بنيت على نظام عجيب واشتملت على أقنية وأنابيب فخارية ومجار يعجز المحدثون أن يأتوا بمثلها.

---

(١) المارستان أو البيمارستان أو «الاسبتار» أو دار المرضى هو المستشفى. أمام بابه ضريح يستدل إنه لمصطفى بك الفقاري وأنَّه عمر بإشارة من رضوان بك أمير الركب المصري سنة (١٠٥١هـ). ولعله من بناء فخر الدين محمد بن فضل اللّه القبطي مات سنة (٧٣٢هـ). وكان في أكثر المدن في القرون الوسطى بيمارستانات فقد كان في غزة وصفد والخليل والرملة وبيت المقدس ودمشق والقاهرة والإسكندرية وبغداد وحمص وحلب وحماة وغير ذلك بيمارستانات بعضها يرجع إلى العهد الأموي أو العباسي أو الفاطمي أو الأيوبي أو المماليك أو الأتراك العثمانيين.

(٢) المزينة بالموزاييك ذ.

ويقـول (وذهبنا إلى روض أريض يصعـد إليه بدرج طويل عريض، وهو من العجائب التي عن الغرائب مفصحة. إذ يكون بستان ذو أشجار ومياه جارية وثمار يانعة وأزهار فائحة وأطيار صادحة، وذلك كله فوق الأسطحة، وتحتها أفران ومخازن وغير ذلك مما عليه الناس مصطلحة، وهو من خصوصيات هذه البلدة النابلسية لأن بيوتها كلها مبنية بالأحجار منحوتة، والجصُّ مبنية، وأسقفتها القبو المعقود وليس السقف من الخشب هناك بمعهود) ثم ذهب إلى جـهـة السراي الخراب العتيقـة وزار ضـريح الدرويش (مـراد الرومي) وخـرج إلى إيوان لطيف قـبـالتـه روض وريف «وأشجار باسقة وأزهار متناسقة وورد يانع على الغصون وعرائش عنب تستظل من تحتها يكون، وفي وسط المكان بركة ماء لطيفة بها ماء يجري».

وأقام الشيخ بنابلس خمسة أيام، وسافر منها فمرَّ على قبر النبي (العزير) وحوله أشجار الزيتون وهو مدفون في مغارة كبيرة مبنية تحت ذلك القبر.

ثم ركب إلى قرية عورتا (وهي تقع إلى الجنوب الشّرقي من نابلس) فدخل مسجدها وفيه مغارة. ويقول الهروي إنَّ فيها قبر (يوشع بن نون) أمـا الحنبلي فـيـقـول إنَّ يوشع دفن في قـرية كـفـر

حارس (وهي إلى الغرب من مردا). وهناك بركة ماء واسعة مبنية بالأحجار البيض بين هاتيك الأشجار القيام. ثم زار نبي الله المنصور في جامع قديم مهجور واستمرَّ متجهاً إلى الشرق لجنوب فوصل قرية جمّاعين (جمّاعيل) وزار بالقرب منها الشيخ علم الهدى.

ولا يخفى أنَّ بني قدامة أجداد الشيخ النابلسي كانوا قد هاجروا من جمَّاعيل، عند الحروب الصليبية فجاؤا دمشق وسكنوا الصالحية على سفح قاسيون وعمَّروها ونسبت إليهم وبنى فيها الشيخ أبو عمر بن قدامه النابلسي جامعاً ومدرسة للحنابلة وظلَّت هذه المدرسة عامرة إلى ما بعد العهد العثماني وتوفي أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة شيخ الصالحية والمقادسة سنة (٦٠٧هـ - ١٢١٠م) وكان يطلق عليهم لقب النابلسي أحياناً والمقدسي أحياناً أخرى. وقد زار الشيخ ديار أجداده ويقول إنه لم يبق منها سوى الآثار. ولا تزال دور بني قدامه حتى اليوم في جمَّاعيل وهي خراب.

وزار الشيخ أحمد الزيتاوي ومر على قرية مردا[١] ثم واصل سيره جنوباً لشرق فوصل إلى عقبة اللبن (كانت اللبن الفاضل بين

---

(١) كانت مردا من أهم مراكز العلم في العصور الوسطى فابن تيمية درس على أحد علمائها وهو شمس الدين المرداوي (٦٩٩هـ).

ولاية بيروت ومتصرفية القدس المستقلة في آخر العهد العثماني) وهناك خان وبركة ماء. ثم صعد العقبة فمر بقبر الصحابيين عمرو بن أمية الضميري وقبر عبد الرحمن بن عوف، وبقرية سنجل فعين يبرود وفيها مسجد من غير سقف يصعد إليه بدرجات. ثم البيرة فاستراح وأكمل سيره حتى صعد العقبة (الشرفة) وأشرف على القدس.

فردَّد مع الحافظ بن حجر العسقلائي حيث قال:

إلى البيت المقدَّس قد أتينا

جنان الخلد نزلاً من كريم

قطعنا في مسافته عقابا

وما بعد العقاب سوى النعيم

فوصل إلى مزار الشيخ جرَّاح (المدرسة الجرَّاحية) وهذا المزار ينسب إلى الأمير حسام الدين بن شرف الدين عيسى الجرّاحي أحد أمراءِ الملك صلاح الدين توفي سنة (٥٩٨هـ) ودفن بزاويته في المدرسة المذكورة.

وخرج للقائه عند هذا المزار جماعة من المشايخ والأعيان وقد نشروا البيارق والأعلام وهم يتلون البراءة ورافقوا الشيخ إلى أن أقبلوا على باب المدينة مع تلك الجماعات. فاستقبلهم فقراء

الزاوية الأدهمية (وهي الزاوية التي تقع في مغارة تحت مقبرة باب الساهرة -قبالة مغارة الكتان - أو مغارة سليمان). حتى دخل باب المدينة المسمى بباب العمود.

ثم يصف لنا سور بيت المقدس فيقول: (وسور بيت المقدس سور جديد متين مشيد قوي الأركان عظيم البنيان يحيط بالبلد كلها وعرها وسهلها مبني بالشيد والحجر المنحوت وفي داخله جميع الأماكن والبيوت وقد أخبرنا أنَّه من بناء السلطان الملك المظفر سليمان خان (٩٤٤هـ - ١٥٣٧م). ومن المعروف أنَّ الملك المعظم عيسى بن العادل أخا صلاح الدين أرسل من دمشق كما جاء في أبي الفداء، الحجَّارين والنَّقابين إلى القدس فخرب أسواره (٦١٦هـ-١٢١٩م) وكانت قد أحصنت للغاية وذلك على زعمه، خوفا من استيلاء الفرنجة عليها. وفي سنة (٦٢٦هـ - ١٢٢٨م) سلَّم الملك الكامل القدس للإمبراطور فردريك على أن يستمر سورها خرابا ويكون الحكم في الرساتيق لوالي المسلمين ويكون للإفرنج من القرايا ما هو على الطريق من عكا إلى القدس (أي الممر أو الكور يدور بلغة الإفرنج).

ويعدِّد لنا الشيخ عشرة أبواب لسور القدس منها باب العمود من جهة الشمال وباب آخر يسمى باب الداعية المتوصل إلى حارة بني زيد وباب يسمى باب دير السرب. وباب الساهرة

ومن جهة القبلة باب المغارية، وباب صهيون (باب داود) ومن جهة الغرب باب صغير لِصقْ دير الأرمن، وباب المحراب المعروف بباب الخليل وباب الرحبة. وهذه الأبواب هي ذات الأبواب التي يعددها الحنبلي في كتابه الأنس الجليل الذي ألَّف سنة (٩٠١هـ) أما الدمياطي فيسمي ستة أبواب فقط وهي ما هي عليه الآن بإضافة باب الجديد الذي فتح في القرن التاسع عشر.

ثم يستمر في سيره والشيوخ يقرأون البراءة إلى أن يصل إلى المدرسة السلطانية (قرب باب السلسلة) وتصعد معه الجموع إلى تلك المدرسة الرحبة. وهي الآن خراب وقد سقط سقفها ومازالت حيطانها قائمة يراها الناظر إذا وقف في سطح الصخرة ونظر إلى الغرب وتقع بين باب سوق القطّانين وباب السلسلة فوق جامع الحنابلة.

وقد بنى هذه المدرسة الأمير حسن الظاهري في بادئ الأمر للملك الظاهر خشقدم من ملوك المماليك فلما مات هذا سأل الملك الأشرف قايتباي قبولها فقبلها ونسبت إليه. وزار الملك الأشرف القدس سنة (٨٨٠هـ). فلم تعجبه فلما كان سنة (٨٨٤هـ). أمر بهدمها وتوسيعها فحفر أساسها (٨٨٥هـ). وعمل على ظاهرها الرصاص المحكَم كظاهرالمسجد الأقصى وصارت

على رأي الحنبلي ج٢-٣٨٧ (جوهرة ثالثة وهي قبة الصخرة وقبة الأقصى وهذه المدرسة).

ويصعد إليها من درج منارة باب السلسلة وهي من المدارس الشهيرة ببيت المقدس مبنية من الأحجار الملونة المنحوتة ورواق المدرسة مبني بالأعمدة وشبابيك المدرسة من النحاس البرّاق وهي تطل على الحرم والمدرسة مبلطة بالرخام والدقيق الملون من الأحجار وهي مقسومة إلى قسمين قسم يتوصل إلى المطبخ وبيت الطهارة والقسم الآخر من ألطف الميادين المفروشة بالسماقي الملون والرخام الأبيض والدقي ومسقوف بالسقوف المدهونة. وتشمل هذه القاعة على أربعة إيوانات.

وتحت المدرسة مسجد الحنابلة ويصلُّون فيه على حدة ولايزال كذلك إلى الآن. وبعد أن تفرّق جموع المشيعين أرسل لهم بالضيافة السيد عبدالله أفندي.

ثم يصف لنا الحرم ولا يخرج وصفه عما هو عليه الآن ويشير إلى ما يحيط بالصخرة من الداخل من الدرابزين الحديد إذ يستشهد بأبي بكر العربي الرحالة (٤٨٥هـ) الذي زار المشرق في تلك السنة ولم ير حول الصخرة شيئاً «والظاهر أنَّ هذا البناء المبني حول الصخرة إنما بناه الأفرنج لما استولوا على بيت المقدس سنة (٤٩٢هـ)».

ويستشهد بالدميري فيقول قال في حياة الحيوان «إن الوليد بنى قبَّة الصخرة في بيت المقدس ناقلاً ذلك عن ابن عساكر. ثم قال وفيه نظر. وإنما بنى قبَّة الصخرة عبد الملك بن مروان في أيام فتنة ابن الزبير. لما منع عبد الملك بن مروان أهل الشام من الحجِّ خوفاً من أن يأخذ منهم ابن الزبير البيعة له. فكان الناس يقفون في يوم عرفه بقبة الصخرة إلى إن قتل ابن الزبير. ولعلها تشعثت فهدَّمها الوليد وبناها. انتهى».

ثم يذكر لنا الكأس (الشدروان - بين الصخرة والأقصى ويقول إن الماء يجلب إليها من ثلاث برك كبار مبنية بالكلس والحجر وعندهم قلعة مبنية بالأحجار المتينة يجلس فيها أناس يحرسون هذه البرك من العدوِّ، والماء يجري من تلك البرك في سواقٍ مغطاة بالأحجار. والظاهر أنَّ هذه الكأس من عمارة السلطان الأشرف قايتباي).

ويصف لنا بعد ذلك صحن الحرم والمنائر ولا يخرج وصفه عما يراه الإنسان الآن فيقول «وبين صحن الصخرة والسور الشرقي أشجار زيتون كثيرة من عهد الروم» ولا تزال ترى هذه الأشجار حتى الآن.

ثم زار تربة الشيخ علاء الدين البصير وقنطرة الخضر وتربة الشيخ خيبر والشيخ السيوفي والشيخ موسى جدِّ محمد العلمي الكبير والشيخ عيد والشيخ غباين والشيخ أبي الريش ثم دخل الحمام.

وبعد ذلك زار مقام النبي داود ويتفق وصفه بالإجمال لما هو عليه الآن ما عدا ما أضيف إليه بعد ذلك من عهد السلطان عبد المجيد وما بعد ومرّ على تربة محمد القرمي وزين الدين عبد القادر القدوة ولده والشيخ أحمد المثبت وقبره تجاه محمد القرمي. ثم زار الشهداء البدرية ودخل (التكية الخاصكية)[1] المشهورة فوجدها مملوءة بأنواع الخيرات وأجناس المبرّات وداخلها قبر سعد الدين الرصافي.

ثم زار مقبرة (ماملاً) ومرّ في الطريق على قبر الشيخ المنسي وقيل هو صحابي. ثم توجه إلى عين سلوان. وفوق العين مسجد لطيف وحولها بساتين القرية المعروفة بقرية سلوان.

ثم مرّ على بئر أيوب في ذلك الوادي وهو بئر عذب الماء بالقرب من عين سلوان. وماء العين بارد خفيف يسقي الماء طول

---

(١) نسبة لخاصكي سلطان زوجة سليمان القانوني (١٥٢٠م- ١٥٦٦م).
تاريخ وقف التكية (سنة ٩٥٩هـ ١٥٥١م).

السنة من ثمانين ذراعاً. وإذا كان زمن الشتاء، فاض الماء وساح حتى يسيح على وجه الأرض في بطن الوادي وتدور عليه أرحية تطحن الدقيق.

قال الحنبلي (٩٠١هـ) «وهذا البئر مشهور معروف وفي كل سنة عند قوة الشتاء وكثرة الأمطار يغور[1] الماء منه حتى يصير كالنهر الجاري ويسيح إلى مسافة بعيدة ويستمر على هذا الحال عدة أيام كالشهر ونحوه. وهو من العجائب».

ثم توجه إلى طورزيتا (جبل الطور) ويسمى هذا الجبل جبل الَحمَر ومرّ على كنيسة (الجسمانية) ودخل الكنيسة لزيارة مريم عليها السلام. ثم خرج ورأى المكان الذي يسميه الناس (بطرطور فرعون) ويرجمونه بالأحجار ورأى بالقرب منه قبة أخرى من الصخر يقال لها (كوفية) وهي زوجة فرعون!.

وصعد جبل الطور وزار قبر رابعة العدوية البصرية. وقبرها في زاوية ينزل إليها بدرج. ثم يقول الشيخ والصحيح أنَّ قبر رابعة في البصرة. أما هذه التي بالجبل فهي رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري.

---

(١) كذا أو أعتقد أن الصحيح يفور خ.

وذهب الشيخ لزيارة تربة الشيخ محمد العلمي (١٠٣٨هـ) وجامعه المعمور ورأى المنارة ثم قبر سلمان الفارسي الصحابي وعلى يمين الداخل المسجد شجرة كبيرة من الخرنوب تسمى بخرنوبة العشرة.

ثم عاد إلى باب الرحمة فزار قبر الصحابيين شداد بن أوس وعبادة بن الصامت. ودخل من باب الأسباط فمرّ على المدرسة الصلاحية فوجدها. «مدرسة عظيمة الآثار أبنيتها قديمة وكأنها كانت قديماً كنيسة. فإنَّ واجهة بابها تؤذن بذلك وكذلك في داخلها الأعمدة والسقوف النفيسة ويقال إن بها قبر حنة أم مريم كما ذكره الحنبلي. وقد وقف على قبر وهو مكان مكشوف والعامة تقول إنه قبر هيلانه أم قسطنطين التي بنت الكنيسة الجسمانية. ثم مرّ على (بركة بني اسرائيل) لصق سور المسجد الشمالي فوجدها بركة واسعة عميقة ليس فيها ماء وإنما فيها الحشيش النابت ثم مرّ بالمدرسة القرقشندية وهي قبالة هذه البركة لصق باب المسجد وفيها قبر الشيخ القرقشندي ثم توجه ودخل المدرسة الغادرية فوجدها عظيمة البناء واسعة الفناء. مشتملة على أشجار الورد لها الرونق وهي بين المدارس كالعلم المفرد».

وعزم على زيارة سيّدنا موسى. «فسار بعد طلوع الشمس بساعتين فوصل وكان وقت الظهر قد فات. وكادت أن تدرك

المشاة الوفاة من شدة الذعر وكثرة الوعر، فأشرف على المقام وكان قد سبقه الخادم من بيت المقدس ففتح المقام. قال الحنبلي «وطريقه عسر لكثرة الوعر وعليه بناء وداخله مسجد وعلى يمينه قبة معقودة بالحجارة. وفيها ضريح يوضع عليه في أيام موسم زيارته ستر من حرير أسود وعليه طراز أحمر مزركش دائر على جميع أطرافه وقد بنى القبة الملك الظاهر (٦٦٨هـ) ثم بنى أهل الخير وزادوا في المسجد وحوله وفي سنة (٨٧٥هـ) وسَّع داخل المسجد من جهة القبلة ولم تكمل عمارته إلى (٨٨٥هـ) ثم بنيت منارة بعد سنة ٨٨٠هـ وأهل بيت المقدس يقصدونه في كل سنة عقب الشتاء ويقيمون عنده أياماً. وقد ظهر في هذا المكان أشياء من نوع المعجزات منها اشتعال الأحجار إذا أوقدها الإنسان تشتعل كما يشتعل الحطب اليابس».

ثم أطل على (بركة لوط) بحيرة لوط المشهورة «وهي بركة واسعة كبيرة واسمها البحيرة المنتنة (زُغَر) وتتصل ببحيرة طبرية (بحيرة المنية) وببحيرة الحولة وتسمى اليوم (بحيرة قَدَس) نسبة إلى قرية قَدَس من أعمال صفد، تتصل أراضيها بهذه البحيرة. وتخرج من بحيرة المنتنة الأحجار على صورة البطيخ على شكلين يعرف بالحجر اليهودي وقد ذكرته الفلاسفة واستعملته في الطب لمن به وجع الحصاة في المثانة، وهو نوعان ذكر وأنثى، ومن هذه

البحيرة يخرج الحمرّ وقد ذكر الناس ممن تقدم عدم تكون الحيوان في البحيرة المنتنة. ولم يتعرضوا لبحيرة كنودان ببلاد أذربيجان لأنها لا يتكون فيها ذو روح من سمك ولا من غيره».

وزار «قبر الراعي» القريب من مقام النبي موسى. وليس عليه قبة أو بناء وعاد راجعاً إلى القدس للمدرسة السلطانية.

وذهب إلى المدرسة الغادرية ودخل إلى ساحة فضية وجلس في ذلك الجامع الذي أذهب عنه الحزن الجامع. وتوجه لزيارة ضريح أبي يزيد البسطامي في المدرسة البسطامية ثم إلى التكية المولوية، فالزاوية الأدهمية، ثم زار الشيخ بدر فمقبرة باب الساهرة، ويقابلها مغارة الكتان، ثم عاد فدخل المدينة من جهة الغرب من الباب الصغير الملاصق لدير الأرمن فمرّ على قبر الشيخ أبو شوشه وحسن بن عليل ثم إلى المدرسة السلطانية.

وتوجه إلى زيارة الخليل فمرّ على قبر (أحمد أبي ثور) وهذا حضر فتح بيت المقدس. وكان يركب ثوراً ويقاتل عليه وقد وقف عليه الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين القرية التي بقرب باب الخليل، وهي قرية بها دير من بناء الروم يعرف قديماً بدير مار قوص (مرقص) ويعرف الآن بدير أبي ثور (محلة أبي طور أو الطوري). ثم اجتاز قبة راحيل أم يوسف. قال الحنبلي (قبة

راحيل بجانب الطريق بين بيت لحم وبيت جالا في قبة موجهة إلى جهة الصخرة). ثم مرَّ بالقرب من مقام الخضر أبي العباس (قرية الخضر) وأقبل على مدينة الخليل فمرّ بجانب السبيل على ماء موضوع هنالك للسبيل. وهو ماء على يسار الساري يأتي من حلحول. وهي قرية بها قبر النبي يونس. وكأنه كان على ذلك الماء بناء فتهدم. ثم سار فمر في وسط ذلك الوادي بين هاتيك الكروم. فوجد على اليمين ماء يسمى عين سارة وهي نضاحة بالماء المعين.

ثم أقبل على حبرون (الخليل) ولاحت له منارة الشيخ علي البكّا (توفي ٦٧٠هـ) ودفن بزاويته المشهورة وهي بحارة منفصلة عن مدينة الخليل من جهة الشمال. ومرّ عن مقابر المدينة، فكان ذلك اليوم يوم خميس الأموات وقد خرجت النساء إلى زيارة المقابر حسب عادة هذه البلاد.

ثم دخل بين البيوت فمرَّ من يمينه على حوض من الماء يتدفق منه الماء الزلال. وعلى يمين الصاعد (المطبخ) الذي يطبخ فيه الطعام ويفرَّق على المجاورين والواردين وهو سماط الخليل ويسمى (الدشيشه). وتدق على باب المطبخ الطبل خانه في كل يوم بعد صلاة العصر عند تفريق السماط الكريم. قال الحنبلي

(٩٠١هـ) ومقدار ما يعمل من الخبز كل يوم أربعة عشر ألف رغيف إلى خمسة عشر ألف رغيف في بعض الأوقات. يأكل منه أهل البلد والمجاورون بكرة النهار. وبعد الظهر لأهل المدينة. وبعد العصر تفرقة عامة لأهل البلد والواردين ولا يمنع من سماطه أحد من الأغنياء أو الفقراء. وهو مكان متسع يشتمل على ثلاثة أفران وستة أحجار للطحن. وعلى هذا المكان الحواصل التي يوضع بها القمح والشعير. وفي أعلى الدرج قبالة وجه الراقي باب كبير مفتوح يدخل منه إلى ساحة مسقوفة بالعقد من الأحجار مفروشة بالبلاط المنحوت الكبار. وعلى يمين الداخل شعيرة محبوكة جميعها من الناس. وهو مسجد يعرف بالجاولية نسبة إلى أبي سعيد سجر الجاولي نائب السلطنة فهو الذي عمَّر هذا المسجد والدهليز وانتهت عمارته سنة ٧٢٠هـ ويتوصل من ذلك الباب إلى جامع سيدنا الخليل وفي وسطه تربة[١].

والظاهر أنَّ أبا بكر الاسكافي زار الغار الشريف كما رآه أبو طاهر السلفي (٥٧٠هـ) ويقول الهروي «دخلت القدس (٥٦٩هـ)

---

(١) قال أبو الفدا وفي ٥١٤هـ زمن الآمر بأحكام الله ظهر قبر الخليل وقبر ولديه اسحق ويعقوب. لم تبلَ أجسادهم الطاهرة وعندهم في الغار قناديل من ذهب وفضة. ورآهم كثير من الناس.

زمن الصليبيين وقد حدّثه بعض مشايخ الخليل أنَّه في زمن الملك بردويل[1] انخسف مكان المغارة. فدخل جماعة من الإفرنج بإذن الملك ثم سدَّت المغارة وذلك ٥١٣هـ».

وبعد أن وصف الجامع الإبراهيمي وزار المقامات خرج إلى صحن الجامع وجلس في مكان فجاءوا له بالخبز والطعام من مطبخ الخليل وهو طعام العدس فأكل منه بقصد البركة.

وقبر يوسف (خارج السور السليماني) من جهة الغرب بداخل المدرسة المنسوبة للسلطان الملك الناصر جسن وتسمى الآن بالقلعة وقد فتح شهاب أحمد الدين اليغموري باباً في السور السليماني من جهة الغرب في سلطنة الملك الظاهر برقوق.

ثم ذهب إلى المنزل الذي ينزل فيه لاستقبال الواردين فحضر عنده الشيخ أحمد أبي الوفا الخطيب بجامع الخليل التميمي نسبة إلى تميم الداري الصحابي الذي أقطعه النبي (ﷺ) تلك الأراضي. ويقول الشيخ (وقد رأيت عند الشيخ أحمد القطعة التي يقال إنها من خفّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وقد صارت رثة وفيها بعض أثر الكتابة وقد رأيت معها ورقة مكتوبة في الصندوق الذي فيه القطعة الأديمة منسوب خط هذه الورقة إلى

---

(١) بردويل= بولدوين الملك الفرنجي الشهير وإليه تنسب بحيرة البردويل في مصر عند البحيرات المرة حيث غرق بعد عودته من غزوة لمصر خ.

أمير المؤمنين المستنجد بالله العباسي كتب منها نسخة الإنطاء وصورة ما كتبه أمير المؤمنين بالله العباسي بخطه «الحمد لله نسخت كتاب رسول الله (ﷺ) الذي كتبه لتميم الداري وإخوته في سنة تسع من الهجرة الشريعة بعد منصرفه من غزوة تبوك في قطعة أديم من خف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبخطه نسخت كهيئته» .

«واستمر هذا الإقطاع بيد ذرية تميم يأكلونه إلى يومنا هذا وهم يقيمون ببلد الخليل وهم طائفة كثيرة يقال لهم الدارية . وقد اعترض بعض الولاة على آل تميم وأرادوا انتزاع الأرض منهم ورفع الأمر إلى القاضي . وهم للآن من أعيان البلاد الخليلية ولهم هناك المشيخة القادرية يجعلون الذكر كل يوم جمعة بمسجد الخليل» (انتهى كلام الشيخ) .

وزار مسجد اليقين (مقام لوط) وهو بقرية ياقين . قال الحنبلي (وثمَّ مسجد بناه أبو بكر بن محمد الصباحي) (٣٥٢هـ) ثم زار مغارة بظاهر المسجد بها قبر فاطمة بنت الحسن وعند قبرها مكتوب على رخامة بالكوفي :

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه

بالرغم مني بين الترب والحجر

أفديك فاطمة بنت ابن فاطمة

بنت الأئمة بنت الأنجم الزهر

ثم ذهب إلى كفر بريك (يقال لها بني نعيم) لزيارة لوط والقرية تبعد نحو فرسخ عن الخليل فدخل الجامع، ثم عاد إلى الخليل من غير الطريق الأول فمرّ على قرية سيعير (سعير) وهي الفاصلة بين الخليل والقدس لزيارة العيص ابن إسحق. وبالقرب من سيعير قبر الشيخ (إبراهيم الهدمه) أصله كردي توفي ٧٣٠هـ.

ورجع إلى الخليل وتوجه لزيارة الأربعين فاستمرّ في السير إلى أن وصل شجرة كبيرة جداً عمّر حولها مصطبة كبيرة بالحجر والكلس وتحتها عين ماء ينزل إليها بدرج ثم صعد المغارة المشهورة بمغارة الأربعين وهي داخل مسجد لطيف. وتوجه بعد ذلك لزيارة مزار الشيخ يحيى.

وودَّع الجامع بقلب موجع وجفن دامع. ثم أتى قرية حلحول فزار النبي يونس ومرَّ ببيت آمر (اوّمر) وبها قبر متى (أب أو أم يونس) ولم يزل في السير حتى أشرف على البرك (برك سليمان) التي يجتمع فيها الماء ويجري إلى مدينة القدس. ثم يصف البرك الثلاث وهي ملآنة من مياه الأمطار ومن عين لطيفة.

ولم يعلم عمقها لامتلائها بالماء. وهناك قلعة مبنية بالأحجار فيها رجل من الفلاحين يسكنها بأهله وأولاده وأعوانه وأجناده لأجل حراسة تلك البرك من الإفساد. ثم جاوز البرك وعرض له أن يزور بيت لحم.

ويقول الهروي[1]: (وبيت لحم غالب سكانها في عصرنا نصارى ويرد إليها من بلاد الإفرنج وغيرها أموال كثيرة للرهبان المقيمين في الدير المجاور للكنيسة). وقد زار مغارة (مهد عيسى) عليه السلام وعليه قناديل من ذهب مشعولة ليلاً نهاراً. ومكان جذع النخل نقرة في الأرض صغيرة مزمّكة[2] بالذهب وعليها القناديل من ذهب أيضاً مشعولة في جميع الحالات). ثم خرج الشيخ وذهب إلى مسجد بيت لحم. فيقول: وهذه القرية نصف أهلها القاطنين بها مسلمون والنصف نصارى (هذا في سنة ١١٠١هـ).

ومن عادتهم أنّهم يصنعون المسابح من خشب الزيتون ويخرطونها على أنواع مختلفة ويبيعونها للزوار فاشترى الشيخ منها. ثم سار إلى القدس وبات في المدرسة السلطانية.

---

(١) القرن السادس الهجري. ددخل القدس سنة ٥٦٩هـ. (٢) معشقة.

وحضر عنده الأصحاب فزارهم. ثم ذهب إلى القلعة فزار الجامع بداخلها (وفيه محراب داود). وفي هذا الحصن برج عظيم البناء يسمى برج داود من البناء السليماني، ثم عاد فزار تربة مأمن اللّه، ومدفن القلندية. قال الحنبلي (وبوسط مأمَّلا زاوية تسمى القلندية وبها أبنية عظيمة. كانت هذه الزاوية كنيسة من بناء الروم وتعرف بالدير الأحمر. فخربت وفيها مدفن الأعيان من الأمراء). ثم رجع الشيخ فدخل المدينة من باب العمود إلى دار نقيب السادة الاشراف.

وأرسل إليه أمين الدين أفندي وطلب منه الإجازة العامة في العلوم على مقتضى الطريق المعلوم فكتب له في كتاب إجازته.

وأخيراً عزم الشيخ على الرجوع إلى دمشق فلما كان اليوم الرابع والثلاثون حضر لوداعه جملة من أصحابه فساروا معه خارجاً إلى باب العمود ومنهم من سبقه إلى الشيخ جرَّاح ووصل بعضهم إلى البيرة فنزل هناك على مياه كثيرة ورياض نضيرة. ثم سار إلى قرية سنجل وبات ليلة عطرة كانت من اللصوص خطرة، وواصل سيره إلى نابلس. فخرج أهلها للقائه حتى دخل مدرسة الشيخ بدران (هو العماد عبد الحافظ سنة ٦٩٨هـ) فجلس في اليوم السادس والثلاثين في تلك المدرسة حتى ورد الركب الشامي.

فجاءته المكاتيب من جهة الأهل وجانب أصدقائه وأحبائه . فأول ما ورد له مكتوب أخيه وشقيقه الشيخ يوسف وولده الشيخ محمد صادق وبعض الأصدقاء .

وطلب منه الشيخ أحمد الحارثي أن يكتب له إجازة في طريقة الشاذلية ففعل . ثم ذهب لزيارة (الشيخ مراد الرومي) في زاويته وأخذ خادم ذلك المكان (يداً صغيرة مجعولة من عظم السمك الأبيض ولها ساعد من حسك السمك الأبنوس الأسود المتين كانت لشيخه وهي مغروزة فوق ضريحه فتناولها ورفعها للشيخ فأخذها) .

وذهب إلى الحمَّام المسمى بحمام الريش . ثم لضيافة بعض الأصحاب ثم لزاوية القدم المرسوم والشهيد المعلوم . ثم ذهب إلى المكان المسمى برأس العين المشهور بعين الرصاص . وبعد ذلك ذهب بين تلك الرياض إلى مكان منخفض في الأرض عليه عمارة تشبه القبو كالقبر يقال إنه دفن فيه النمرود . ثم مرّ عن عين تسمى عين العسل . ثم توجه إلى جهة مسجد الخضراء فدخل الجامع وهو قديم البنيان متهدم الأركان . فيه بركة مربعة والماء يجري من أفواه سواقيها .

وذهب بعد ذلك إلى جامع الساطور ثم إلى ضيافة بدار الشيخ عبد الغفور. فالمدرسة، فبات فيها، وودع أصدقاءه. ثم سار حتى وصل بئر الحمام وهو بئر ينبع الماء من أسفله فيظهر على وجه الأرض ويملأ البرية. ثم لا يزال يتناقص حتى يصير بحيث يدلي الدلو إليه ولا يستطيع أن يتناول الإنسان ماءه بيده. ولما جاءه كان ماؤه قد نقص عن وجه الأرض مقدار نصف ذراع. وحوله المروج الخضراء ذات الاتساع. وسار إلى قرية قباطية وبات فيها فقصد زيارة قبر الشيخ محمد أبو الربّ سمي بذلك لأنه إذ كانوا يطبخون ربّ الخرُّوب في حلَّة كبيرة على النار أدخل فيها يده وحرّك الرب فلم تحترق. وعليه قبة مبنية بالحجارة والشيد وحوله قبور. ومعلوم أنَّ جبل نابلس اشتهر في القرون الوسطى بصناعة رب الخروب أو دبس الخروب كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. وسار بعد ذلك فوصل إلى جنين ودخل القلعة المعمورة وبات في بيت خارجها. وكان ذلك تمام اليوم الأربعين. ثم ذهب إلى الحمام في اليوم الحادي والأربعين وركب إلى قرية (جلمة) وسار إلى أن وصل عيون التِجار وبات هناك. إلى أن وصل المنية «وأشرقت عليه هاتيك البحيرة الواسعة وعلى حافتها أشجار الدفلى ذات الزهور الحمرة» واستمر إلى أن وصل جبَّ يوسف فشرب من مائه ثم وصل جسر بنات يعقوب فبات في داخل الخان الخالي من نوع

الإنسان. وصعد إلى الجسر الطويل يمشي تارة ويركب أخرى حتى قطع الحجارة المصفوفة بذلك السبيل ومرَّ على قوم من العرب النازلين في بيوت من الشعر فتذكَّر قول أبي العلاء:

والحسن يظهر في شيئين رونقه

بيت من الشعر أو بيت من الشَعَرِ

فنزل في ذلك الحي. ثم سار إلى أن وصل القنيطرة، ونزل في تكيَّتها وحضر عند قاضيها وخطيبها وبات تلك الليلة مسروراً. ثم سار إلى سعسع، «وسعسع نحوه نور الشام». فدخل الخان وبات فيه مع الرفاق والخلان. وكان ذلك اليوم الخامس والأربعين فركب متوجهاً نحو دمشق واجتمع بالأقارب والأحباب. إلى أن أقبل على قرية داريا الكبرى «فأقبل على باب اللّه حتى دخل داره بالصحة والسلامة والعافية التامة والكرامة» كما يقول. وكان ذلك يوم الأربعاء أول شهر شعبان سنة ١١٠١هـ (١٦٨٩م).

* * *

رحلة
«مصطفى البكري الصديقي»[1]

يقول السيد مصطفى الصديقي الدمشقي ثم المقدسي «إنه طالما كانت تتوجه به الهمة وتقلقه الأشواق بعزمة أثر عزمة إلى زيارة بيت المقدس» فكان ذلك يوم الخميس في اليوم التاسع عشر من محرم الحرام من عام اثنين وعشرين وألف. فسمى رحلته «الخمرة المحسية في الرحلة القدسية». فتوجه ذلك اليوم مع ركب الزوار ومنهم خاله، وكان ذلك في زمان الربيع والنسيم لطيف عرفه مذيع، فساروا إلى قرية داريا. وبعد أن قرأوا الفاتحة لأبي سليمان الداراني وأبي مسلم الخولاني توجهوا إلى أن وصلوا خان الشيح، فنزلوا على شاطىء نهر الأعوج. ثم ركبوا الخيول إلى أن وصلوا قرية

---

(١) عمر في القدس الخلوة التحتانية تقام بها الأذكار والأوراد ولها تعيين من خبز وأكل على تكية السلطان (المرادي ج٤ - ص١٩٢).

سعسع وتوجهوا إلى «النقار» وما زالوا يسيرون حتى وصلوا إلى القنيطرة. (بل سمَّوها وهي به أحق لبردها بالزنيطرة) فنزلوا في خانها المعهود يقاسون من شدة بردها المشهود. ويصف الشيخ ليلته فيقول (وكنت قد مددت فيها وطاء للمنام فغبت حصة وجئت فوجدته كالمسقي بماء الغمام). فسأل خاله فأجابه إنه من الندى. وبعد ذلك اعتلوا ظهور الدواب وساروا فنزلوا بمرج أخضر ذا[1] عطر فائح ونوار أزهر إلى أن أشرفوا على (أبي الندى) في رأس ذلك الجبل، وقد (شاب من الرأس لما بالثلج انجبل). ثم ولجوا الغابة ذات الثغور المهابة واجتمعوا فيها بحاكم القنيطرة ومعه نحو العشرين من الخيالة بأيديهم الرماح الردينية الماهرة في علم السياسة والسيطرة، فرجع القَفْلُ مبدَّداً فأمرهم باجتماع خوفاً عليهم من غائلة البغاة القطاع. فسرنا إلى أن أشرفنا جسر بنات يعقوب ولم نزل نهبط في ذلك الجسر هبطاً في انحداراته الوعرة الصعبة خبطاً إلى أن وصلنا الخان. وقد قرب وقت العصر وحان. ثم خرج إلى أفناء ذلك الجسر البديع والرحض الأريض الذي لشذاه يذيع، وشرب ذلك الماء الدافق وشم عطر النسيم الذي في جنباته خافق. وصعد بعد ذلك إلى الخان

---

(١) الأصح ذي.

وبات وهو يحيط[1] المكان والسكان من طوارق الأنس والجان، ثم مر على ذلك الخان وقطع الجسر فوق النهر الجاري.

وسار مع الفجر يطلق الرف في ذلك الربيع الفائح، والزهر الذي بشذاه المسكي بائح، يسبح تارة ويذكر اللّه أخرى، ويختم كل يوم دلائل الخيرات وغير ذلك من الأوراد، إلى أن لاح له جبُّ صاحب الجمال الباهر السيد يوسف الصديق. وكان الجو قد أطبق بالسحاب وفتحت للأمطار من كل جانب الأبواب وما أدرك خان ذلك الجب اللطيف، إلا وقد عمَّته رحمة اللطيف. ثم صعد إلى سطح ذلك الخان، وأخذ في قراءة السور وبات في أطيب عيشٍ إلى أن لاح الفجر، ورأى على البعد قبة يقال إن فيها رجلاً يسمى عبد اللّه من أهل المكانة والقربة. وفي طرف الجب على البعد بركة ماء واسعة الجوانب تنتفع بها المارة، من الأقارب والأجانب. ثم سار يقطع المفاوز والوهاد، إلى أن أشرف على المنية في أول النهار.

ومرّ على حافة تلك البركة فرأى حجر النملة «وهو حجر أسود قد نخره النمل يتعجب منه في الجملة. يطلع ويدخل في أوكاره».

---

(١) أي يدعوا الله أن يحيطهم برعايته.

ومازال وصحبه يقطع الفيافي إلى أن وصل عيون التِجار وكان قد نعق في الخان بوم الخراب وقارب أن يساوي التراب وبداخله جامع لطيف متسع الأكناف لم يدخله في حالة الذهاب ولكن تيسر الوقوف عليه في الإياب. وهذا الجامع والخان عمارة المرحوم سنان باشا الوزير(١). وبات تلك والليلة(٢) ولما أصبح الصباح سار مع الركب يقطع متون الصخور وبينما كان يسير ضحىً في تلك البقاع «إذا بمردفٍ ومعه آخر من القطاع فعرف الركب أنهم طليعة فاجتمعوا وأطلعوا المكارية البديعة حتى ملأوا تلك الصحراء من ضربهم وأعلموا الكامنين بشدة بأسهم وحربهم». وبعد أن قطعوا ذلك المكان المخوف حمدوا اللّه على السلامة.

---

(١) صاحب الآثار العظيمة في البلاد، منها جامع سنان باشا بدمشق والحمام والسوق وله مثل ذلك في القطيفة وسعسع وعيون التجار وعكة (عكا) مع خانات ينزلها المسافرون وله ببولاق جامع عظيم ومثله باليمن والقسطنطينية وغيرها من جوامع ومساجد ومدارس، وخانات وحمامات تفوق المئة. وهو أكثر وزراء آل عثمان آثاراً وأعظمهم نفعاً. ولي حكومة مصر في زمن السلطان سليم بن سليمان. فتح حلق الوادي بتونس وكان الافرنج تحصنوا فيها (٩٨١هـ) ولي الوزارة العظمى توفي (١٠٠٤هـ).

(٢) كذا والأصح الليلة.

وصل جينين (ذات القلعة والحصن الغير حصين وأطلقوا الدواب ترعى في ذلك المرعى الخصيب). ثم يقول «ولقد أخبرنا بعض الرفاق أنَّ الطريق في غربها قُطَّاع تخيف فما تركنا الحصن مع المشيئة حتى ذكرنا اسمه اللطيف ستة عشر ألف وستمائة وإحدى وأربعين مرة» وكان يفعل ذلك في بعض المراحل التي يخبر فيها أنَّها مخوفة للنازل والراحل. وبات تلك الليلة إلى الصبح وركب ظهر دابته يقصد نابلس بين تلك الروابي وقد فاح فيها زهور لا يماثلها ندٌّ ولا كافور. والتقى الركب مع جماعته متوجهين إلى جنين اللماعة فانفرد منهم صبي صغير، وسلَّم على الشيخ سلام الرجل الكبير. فتعجب من انفراده عليه السلام وحمد اللّه العلام. ولم يزل الركب يخبُّ الأرض إلى أن أشرفوا على وادي (الصغير) فقابلهم بعض أشخاص وطلبوا من المكارية[1] الغفر[2] بوجوه كلحة لا يأخذها وجل ولا خفر. فأخبروهم أنهم أعطوا ذلك لغيرهم من الغفرية. فلم يرضوا إلا بالأخذ ثانياً لشدة ما هم عليه من الحميَّة. ثم إنهم أوقفوا القَفْل[3] مراراً وأخذوا منه على سبيل الرهنية حماراً. وأرادوا أن يأخذوا بعض أثواب من

(١) المكارية جمع مكاري وهم قواد دواب الرحلة.

(٢) الاتاوة. (٣) القفل = القافلة.

التجار، فأخذت المكارية منهم بندقية ورموهم بالأحجار، إلى أن فرّوا وطلبوا النجاة بالذل والصَغَار . وبعد حصة[1] لحقوا بالقافلة وأتوهم بالحمار وردّوا ما أخذوا من بعض الناس وأخذوا المكحلة[2] ورجعوا بصفة الإفلاس. ولما بلغ حاكم نابلس فعلهم الشنيع أرسل إليهم بعض الجند ولم ندر بما قابلهم على ذلك الصنيع».

ثم سار حتى وادي نابلس الخصيب، وشاهد ما حواه من العجب العجيب، فرأى طواحينه الدائرة، ونجومه وأزهاره، ونزل مع خاله عند عين ماء كأنها زلال فشرب وحمد اللّه. ثم دخل بعد ما نزل خارجها وألقى السلاح والعدة. فدعاه بعض أصحاب خاله إلى دارهم فذهب. وكان مراد الركب أن يقيم في تلك الأراضي الخصيبة فوشي به للحاكم فغرموا بعض دراهم فقلقوا لذلك ورحلوا في ثاني يوم.

ثم سار متوجهاً إلى القدس إلى أن وصل قرية سنجل فنزل في ساحة في أسفل البلد، وهي في علوة لا يرقى إليها كل أحد، فأدّى فرض الوقت بالقصر[3]. وأخبر بلصوص، ولكن لم يذهب منه ومن صحبه بحمد اللّه عقال، ولكن لصوصها على ما قيل كلصوص الرّي[4] في المهارة ما

---

(١) وقت من الزمن. (٢) البندقية.

(٣)صلاة القصر. (٤) الري مدينة فارسية قرب طهران المعاصرة.

فيهم ما يقال. ولما أصبح الصباح همت القافلة للرحيل فساروا حصة على جادة الطريق وصلى الصبح في مرج طيب عبيق حتى وصل قرية البيرة. ثم صعد العقبة وأشرف على بيت المقدس ونادى هناك من معه من الغلمان فرجاً بما بدا حيّا اللّه ما بان، فأخذ لذلك الشيخ الطرب والاهتزاز. ولما قرب الشيخ جرَّاح قرأ له الفاتحة، فلما وصل قريباً من باب المدينة وجد بعض أهلها قد خرجوا للتفرج على الركب من الباب الشامي.

ولما أرادوا دخول المدينة طلبوا الإذن ممَّن حلها من أهل المراتب المكينة كما هو المطلوب من كل داخل وخارج ليكون مطلبه المطلب الناجح[1]. ولما صدر الإذن دخلوا المدينة بالذل والسكينة ونزل هو وخاله في دار قريبة من الحرم عند رجل شريف من أهل الكرم، يقال له السيد محمد الطواقي.

وكان أهل بيته يكرمونه وخاله. وكان هذا المكان منزل الخال من القديم. ولما ارتاح قام وخاله لزيارة الحرم ودخل الصخرة وصلى المغرب والعشاء وعاد إلى الدار. وفي اليوم الثاني زار المسجد الأقصى. وكان في أغلب الأوقات يجلس في الدار يكتب تارة ويطالع فيما معه من الكتب خوف الاشتهار.

---

(١) يستدل من هذا على أنه كان هناك ما يشبه نظام «الجواز» في هذه الأيام.

ولم يصحبه في تلك الأيام إلا «أخونا الفاضل الأديب الماهر المناضل أحد التجار المعتبرين السيد علم الدين العلمي» فكان يتردد على الخال ومنهم الشيخ السالك طريق السادة الخلوتية الشيخ يحيى الدجاني خادم نبي اللّه داود، وقد دعاني إلى دار الضيافة المعمورة التي بإمدادات الخليفة سيدي داود مغمورة». ولبث يتردد على هذا المقر إلى أن حان الموسم الكليمي وتوجه الركب إلى ساحته، وسبقهم إليه السيد علم الدين ودعاه لأن ينزل في خيمته، فتوجه وكاد يطير بلا جناح، ومر على قرية سيدنا العزير أي أليعازر (العيزرية).

وسار يقطع السباسب، إلى أن لاحت قبة الضريح واعتراه صداع زائد فتلقاه صديقه وخاله السيد محمد النسيب الإمام بالمسجد الأقصى. ولما صلى الظهر وأكل ما تيسر ظل كذلك إلى أن زار المقام ورفع أطراف الستر ووضعها على رأسه فزال صداعه في الحال، ومكث في زيارة الكليم[2] ستة أيام، قضوها في تلك المروج وفي قراءة دلائل الخيرات وكان القارىء لها صديقه السيد محمد الإمام.

---

(١) هو مفتي السادات الشافعية وصاحب الفتاوي الخليلية وصاحب قصر كرم الشيخ وزارع شجرة «القريش» الصنوبر الحلبي- وهي موقع المتحف الفلسطيني الآن.

(٢) الكليم هو النبي موسى.

وفي اليوم الثاني اجتمع بشيخه الشيخ محمد الخليلي[1] ففرّقوا الربعة وقرأ دعاء الختم صديقه خليل الإمام بالمسجد الأقصى. فبكى وأبكى. وكانت الفقراء بالطبول والأعلام ترد كل يوم أفواجاً على المقام.

وفي ساحة الكليم بئر ماء معدَّة لجمع مياه الأمطار يستقي منها الزوار، وقد سعى في تعميرها وتسليك مجاريها الشيخ محمد المكنى بأبي فردة، وله ميزات عدة منها رواق المغاربة المتنفع به الآن. وماء تلك الآبار يحرق الطعام وينفع الجرب والحكَّة لأن أرضه كبريتية الأجرام، وبذا أحجارها توقد ويجعل منها تنوراً فيتأجج ويتوقد. وأخبرني أي الشيخ محمد الخليلي المذكور «أنَّ كل ما يقع في الموسم من دق ولعب مباح لا يؤاخذ به أهل الموسم، ويقع لهم بذلك السماح إلا إذا وقع فساد، في تلك الأغوار والأنجاد، فإنها تثير عجاجة تقلع الخيام وترمي القدور وتريق الطعام حتى أنَّ أهل الموسم لما تكرَّر هذا الأمر تيقنوه حتماً، فتتصارخ الناس بالدعاء على الفاعل ويشفون غيظهم شتماً. وجيء بالخيام في بعض السنين عد هذه الفعلة المقبحة تقبيحاً من قرية بعيدة عن المقام نحو ساعتين يقال لها أريحا. ولم تقع في السنة التي كنا بحمد اللّه تعالى فيها. بل وقعت كما أخبرني بذلك الخال في التي تليها».

وقد أخبره السيد علم الدين كان اللّه له خير معين «إن بعض التقاة الأخيار أخبره بعد مضي الزوار، من تلك الساحة الأنيسة والبقع المباركة النفيسة تأتي طيور بيض بمناقير طوال (يقال لها الرخم) يأخذون بها القاذورات ويرفعونها من تلك المحال ويعقبه لا محالة غمامة هطالة تغسل تلك الأرض بالطول والعرض». ولما اعترى الشمس الاصفرار خرج يتهادى على ظهور تلك الجبال حتى أشرف على بركة سيدنا لوط التي خيطت جنباتها من النبات بخيوط.

ثم ذهب ثاني يوم لزيارة «الراعي» وأعاد له الزيارة ويقال أنه راعي الكليم. ولما أصبح الصباح تركوا المقام والعين تسح كعين، فوصلوا العيزرية ظهراً. ودخل من باب حطة. فزار الخليفة الأعظم (نبي داود) لما أشرف على قبة ضريحه، وكذلك زار جبل الطور ومريم العذراء ثم الصخرة والأقصى. وكان في أغلب الأحيان يجلس في أحد شبابيك الأقصى العتيقة المطلة على جبل المكبر[1] وحديقة الخاتونية وأنَعِمْ بها من حديقة ويستصحب معه الدواة والقلم ويكتب للتسلي. ثم ينظم الأشعار في مدح المسجد.

(١) هو الآن موقع دار المندوب السامي والكلية العربية بالقدس.

وكـان يصـلي في أغلب الأوقـات مع الإمـام الحنفي في الصـخـرة. وينزل في بعض الليـالي إلى المغـارة. وفي بعض الليالي لا يستطيع النزول (لثقل موارد الواردين من الفحول). وكـان فـي تلك الأيام يـحضـر درس شـيـخـه الشيخ مـحـمـد الخليلي. ويجلس من بعيد بحيث يسمع ما الذي به يفيد، وإذا سمع الأذان بادر للصلاة وكـان يصلي خلف «الشيخ المذكور الجـميل في سـمـاته مـحبـة في تعـديـد أركـانه وحـسن قـراءته وتكميل صلاته».

وكـان يقـرأ في تلك المدة ورد السـحـر للأسـتـاذ الأفـخـر سيدي جلال الدين محمد البكري. وطلب منه بعض الإخوان أن يضع ورداً مناسباً للسحر. فبينا كـان عند الخال في الدكـان طرقه طارق فـي أذنه بالتأليف، فتم تسويده في أقل من ساعة، ولما ذهب للدار أعاد النظر فيه. ولما جرّده وحرّره وبيّضه ورتّبه وحبّـره سمـاه (الفـتح القـدسي والكشـف الأنسي) (والنهج القريب إلى لقاء الحبيب).

ثم إنه لما كان في ما تقدم مشتغلاً إذ بهواتف الزوار تهتف بزيارة الخليل. فسـار مع الركب الجـامع وصـحـبـه (الغـفـرية) ليوصلوه إلى ذلك النور اللامع. ومرَّ على ضريح أبو ثور وهو شهـاب الدين أبو عباس أحمد بن جمال الدين بن عبد الله ابن

عبد الجبار المعروف بالقريش والمشهور بأبي ثور. وبها قبر ظاهر يزار وله ذرية وهم مقيمون هناك. ومما يحكى عنه أنه كان مقيماً بالقرية المذكورة وإذ قصد ابتياع شيء من المأكول كتب ورقة بما يريد ووضعها في رقبة ثور وسيَّره فيحضر الثور إلى القدس إلى أن يأتي حانوت رجل بالقدس كان يتعاطى حوائج الشيخ. فيقف الثور عنده فيأخذ ذلك الرجل الورقة ويقرأها ويأخذ للشيخ ما طلب منها ويحمله الثور إلى الشيخ بمكانه.

ولما وصل إلى البرك، أناخ للراحة. وهي ثلاث برك كل واحدة عليا أكبر من أختها السفلى تمتلىء إذا حمل الفحل وهو عبارة عن سيل ذاك الوادي مع السهل. وساروا والخوف يرافقهم من قطاع ذلك الطريق، وكلما قطعوا وادياً مخوفاً بكمين دفين بدا لهم آخر حتى وصلوا قوفين[1] فقرأ الفاتحة للنبي يونس، ثم أشرف بعد قليل على كروم أراضي الخليل، ووصل المدينة ونزل بالخان. ثم تحوَّل عند بعض الخلان. ودخل الحرم، للزيارة، فزار المقامات جميعها ودعاه بعض الأصدقاء لداره وعاد للمسجد، وبات في دار مأنوسه قريبة من الحرم.

---

(١) فوقين.

ولما أصبح الصباح بادر للمسجد وأقام به إلى المساء بلا عشاء وذهب إلى الدار الأولى وبات ليلة أنيسة. وجاءه ضحوة النهار بعض الرفاق فزار الشيخ علي البكّا، والشيخ كنفوش والأربعين. وعاد إلى الجامع. فدعاه العلماء لداره ورجع للمحل الأول وبات. ثم سار بعد الوداع وما علا النهار حتى علت الزوار متون الدواب فرافقهم وقد لاحت لوائح الفرقة والاكتئاب، والسبب ترك صلاة الجمعة وسلوك هذه المسالك والخوف من أهل البادية الذين لا يرهبون اقتحام المهالك.

ولم يزل يسير حتى وصل إلى البركة المعهودة الحصينة والنفس على فوات الجمعة في تلك البقعة حزينة. وفي ثاني يوم عند الوصول إلى الديار ورد الصديق السيد محمد نجل السيد عبد الله السلفيتي للسلام. وما كان يعرفه إلا من ذكر شيخه قاسم بن سعيد المغربي له. فعرَّفه بنفسه والخال فوقعت الألفة الجنانية في الحال وامتدت أغصان شجرتها وتفتقت كمائم ثمرتها إلى أن صارت محبة ونسبا[1]. لما اتبع في المواصلة سبباً.

---

(١) في المرادي أن الشيخ مصطفى تزوج في القدس وخلَّف بنتاً توفيت فيما بعد. ويظهر أنه تزوج بنت الشيخ عبد الله السلفيتي وذلك سنة ١١٣١هـ. وأرخ زواجه (زفة الزهراء للقمر).

فسار معه إلى زيارة النبي (شمويل) ورافقهم فتح اللّه الدجاني ونور الدين السعدي فصلى المغرب وصعد إلى سدة رفيعة بنيت بالأحجار. فطلبوا قراءة ورد العشاء والذكر ففعل. وفي الصباح ركبوا الخيل وعادوا للقدس. وفي الليلة الثانية اجتمعوا في خلوة الدجاني في الحرم يتذاكرون فيها ولما مضت مدة فروا من المحل لغيره خوفاً من الاشتهار. وطلب بعد ذلك منه السيد محمد الطريق فأدخله على الاستخارة. وتبعه نور الدين في طلب الوصيلة بالطريق فامتنع خوفاً من عدم القيام بالشروط، وفرقا من حل عقدة العهد المربوط، فأجاب بقبول الشرط والنهي والأمر. فأمرهما بالكتم دون الإشاعة وأوصاهما بحفظ ناموس الطريق وعدم الإضاعة.

ثم جاء السيد مصطفى بن عقبة وأخوه عبد اللّه وطلبا الاندماج في هذا المنهج فحصل لهما ما طلبا. وسبق الأول وانقاد الثاني وكذلك السيد داود وعبد اللّه المصري وسليمان من أهل بيتونيا. وكان يجتمع معهم في الخلوة النحوية ويقرأ الأوراد.

أما ورد السحر فكانوا يقرأونه بعد غلق الأبواب. ثم عمل رياضة معهم تنوف على العشرين، وأراد تكميل الأربعين فعاقه عن ذلك بعض المعينين. وكان يقرأ لهم شرح الحكم

للتعزي حتى بلغ قريباً من النصف فمرض المعيد السيد محمد. ومكث في تلك الخلوة ثلاثة أشهر وأيام، لم يكحل عينه بمنام.

وكان يتردد هو وجماعته على مقام النبي داود أو طور زيتا وكان يبيت في الأسعدية، التي بناها جناب المرحوم أسعد أفندي مفتي ديار الروم باسم الشيخ محمد العلمي المدفون فيها. ثم يذهب لزيارة سلمان الفارسي فيزور رابعة، فباب الرحمة، ويخص شداد بن أوس وعبادة بن الصامت. وذهب معهم إلى زيارة العزير عليه الصلاة والسلام (العيزرية) وبات عنده ليلة بدرية، و رافقه المحب المجذوب الشيخ عبد اللّه القربي الحنبلي، وشرعوا في الذكر. «وكان بعض أوباش القرية الجالسين في صف النعال، مرادهم الأذية بأنفس دنية، ولو بسرقة النعال فدفعهم اللّه بحوله وقوته عن الاغتيال، ولم يثبت إذ غلب النعاس معي في السهر إلا الأخ السلفيتي، ونور الدين السعدي. ثم عادوا للقدس. وتوجّه لزيارة سيدي شمويل (النبي صموئيل) مرة أخرى على الإقدام وخلع النعال للأدب والاحترام، من نصف الطريق إلى ذلك المقام، وبات عنده ليلة. وقصد بعد ذلك زيارة (رأس أبي زيتون) وسار راكباً متن الخيل فلما وصل بيتونيا أكرموه غاية الإكرام لأن

أولاد الدجاني صحبوه للدلالة على المقام. وهذه القرية وقف للصخرة ذات الاحترام ولهم فيها شركة عن جدهم.

وزار والدة أم الشيخ أحمد الدجاني. وصعد إلى المرقد الذي حلت فيه. ورأى عندها عبداً أسود من المجاذيب ينفر عن الناس نفار الوعل أو الذئب، وأخبر أنه يرقد النار حتى تعود جمراً وينام فيها حتى تخمد بنفسها ولا يألف زيداً وعمراً. وأقاموا في المقام وعزموا على البيات. ويقول «لما آوى الليل كبيت وفقدنا من لوازمنا الزيت» فدار الإخوان على كيزان النذور فلم يجدوا فيها ما به يستصبح. فقال أعيدوا النظر عسى الفتاح يفتح فوجدوا إحداها ملآناً بالزيت الطفاح. فأوقدنا منه حتى لاح الصباح. ثم عادوا للربوع القدسية.

وكان قد وضع رسالة في أدب الخراقة[1] سماها «النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية» وبقيت في المسوَّدة يرجو بياضها في الشام لما يحل غياضها. وسوّد وقائع شيخه المرحوم الشيخ عبد اللطيف وسماها «الكوكب الثاقب في بعض ما لشيخنا من المناقب».

وعزم على زيارة الإمام الهمام علي بن عليل فصلى العصر في الحرم وسار مع عشرة أنفار فوصل في الليل (بيت

---

(١) أدب الخراقة = أدب لبس الخرقة، أو القبول في عضوية الطريقة الصوفية.

اكسا) فقابلهم أهلها بالإكرام. وكان أحد مشايخ فقراء هذه البلاد سبقهم لأجل القِرى وتحصيل الزاد ومعه المزاهر والأعلام بقصد الشهرة والإعلام.

وبات في ناحية ،وهم في أخرى ، وجاء في الصباح يسأله عن أحوال. السكوت عنها أحرى . فأخذ السيد محمد يذكر عن كيفية إرشاده فقال: «طريقتهم إذا جاءهم فقير وأخذوا عليه العهد الخطير يقول له النقيب اجلس مريداً وقم نقيباً فيفعل ثم يقول له اجلس نقيباً وقم شيخاً فيفعل ثم يقول له اجلس شيخاً وقم خليفة فيفعل ثم يدقون الطبول على رأسه ويقرأون له الفواتح ويجيزه الشيخ بالإرشاد. فهل لهذا الفعل من سند معتمد؟» وقد جاءه فقيه بيت اكسا بمجموع رسائل فإذا هي تأليف سيدي عبد الوهاب الشعراني في الكلام على أرباب الطبول والإعلام والكشف عن أحوالهم وبيان زائف أقوالهم.

ولما أصبح الصباح أكلوا ما تيسر وأخذوا يقطعون السهل الأغبر، ذا الوجه الأخضر ، والزهر الأحمر والأصفر وعزموا على المبيت في قرية (سلفيت). ولما تراءت على البعد للعين وصلوا ساحة تلك العين فشربوا من مائها الفائق ماء العين، وقبل الوصول إليها زاروا الشيخ تقي الدين صاحب القدر السامي المكين. وجاءهم جمع الأحباب ونزلوا في جامعها. وكان الشيخ قاسم المغربي المقدم أقام في المسجد مدة أشهر.

وباتوا تلك الليلة يتلون الأوراد وساروا في الصباح على الخيل العِراب يقطعون تلك المهاد حتى مروا على قرية (عورتا) فزاروا فيها قبر السيد المفضل وعليه شجرة خروب، فأكلوا منها تبركاً وزاروا سيدنا المنصور وهو في داخل مسجد مهجور. ثم أمُّوا جهة (جمَّاعين).

ونزلوا في دار أعدَّها أهلها للضيافة فإذا الصديق الشيخ يحيى الدجاني وباتوا في دار واسعة الأكناف، وقرأوا الأوراد، وأطلعه الصديق المشار إليه على كتاب كان بين يديه فيه ذكر رحلة الشيخ أيوب، فسرّ به كثيراً. وما علا النهار حتى هان صعب ووصل بمن معه إلى أراضي بني صعب. ونزلوا ليجتمعوا بالشيخ مقلد[1] في قرية حجّة، من أجل أخذ مرسوم لأهل الطيبة كالسند والحجة يأمرهم فيه بأن يوصلوهم إلى الحرم (سيدنا علي) بن عليل فأجاب إلى المطلوب، وسأل عن أحوال كان منها على رجّة، لسبب خوف عمَّ الجوف فأورث الفم فيه رجّة. وهي توفر دواعي الأخبار، أن الوزير نصوح باشا[2] (والي الشام) قامع الفجّار، قد حاصر قلعة الكرك ذات الحصن الشامخ المنيع الأسوار، فقال الشيخ مقلد: إن فَتَحَ هذه

(١) الجيوسي والد الشيخ حسن، حج معه مؤلف الرحلة سنة ١١٤٥هـ.

(٢) توفي ١١٢٣هـ. (٣) يستدل من هذا أن الساحل بين الطيبة وسيدنا علي كان غابة كثيفة الأشجار.

القلعة بعد هذا الحصار، فإنه لا يعوقه شيء في البلاد الشامية. وكان معهم الشيخ عبد اللّه القربي وكان من عادته أن يقصد الشيخ مقلد، فسأله عن عمره وهل هوأكبر منه، فأخبره أنه تجاوز الخمسة والثمانين على الظن منه لا التعيين. وفي الصباح حرّكوا الركاب إلى (الطيبة) ونزلوا في جامعها وعرضوا عليهم مرسوم الشيخ (مقلد الجيوسي)، فأجابوا من غير توقف بالسمع والطاعة ومشى معهم بعد العشا ثمانية أنفار ليقطعوهم[١] الغابة[٢] فلما قطعوا أكثر من ثلثي الغابة، أخذوا يسمعون دوي البحر، فنزلوا يستريحون وقاموا بعد غفوة حتى يدركوا صلاة الصبح في الحرم. ثم لاح الفجر فما كان إلا قليل بعد المسير الجميل حتى سمعوا صراخاً فحصل اضطراب ثم تبيّن أنهم من أهل النزلة أصحاب، ولم يطل سيرهم وهم يسمعون هدير البحر يزيد حتى أشرفوا على ذلك المربى الزاكي والمرتع الخصيب المربع البديع الزاكي. فأسرعوا للصلاة عقب الزيارة. وجلس الشيخ إلى الشباك المطلّ على البحر الزاخر يمتع نظره ثم نزل إلى الشط وهو في غاية الانشراح. ثم زار أهل التربة ثم تربة أخرى قرب السور.

---

(١) ليعبروا بهم الغابة.

(٢) يستدل من هذا أن الساحل بين الطيبة وسيدنا علي كان غابة كثيفة الأشجار.

وكان الظهر قد دنا وإذا بورّاد يحثّون بنعال خيولهم الأرض حثاً، وكانوا قد جاؤوا من زيارة النبي روبين وأخبروه أن وراءهم ركباً، ومعهم الشيخ نجم الدين (الخيري) مفتي الرملة. وغبَّ قليل تتابعت الزوار من كل جليل واجب حتى غصّ بهم المحل. ونصبت الخيام واصطفَّ أهل المزاهر والإعلام واجتمع بجناب الشيخ نجم الدين نجل العلامة خير الدين مفتي الرملة حالا. وبعد التحية والسلام بقليل جيء إليه بزنبق بريّ طيب الرائحة فقال: إن الوالد الأسبق قد صرح بتشبيه هذا الزنبق وأنشد:

وزنبقة قد أشبهت كأس فضة

برأس قضيب من زمردة عجب

سداسي شكل كل زاوية به

على رأسها الأعلا هلال من الذهب

وأقام في تلك الرحاب إلى العشاء. وبعد الصلاة قاموا ليقطعوا الغابة ليلاً فاعتلوا خيولهم فأتى دولاباً يملأ كيزاناً [1] وأكواباً فأقاموا عنده. وقطعوا ما بقي من مروج تلك الأرض

(١) يستدل من هذا على وجود «البيارات» فقد كانت هذه الدواليب تدار في بادئ الأمر على كيزان ثم صارت (قواديس) من حديد أو خشب.

حتى وصلوا نابلس المحروسة ذات الربوع والطلول المعمورة المأنوسة، ونزل خانها المعهود، المعدود قديماً لأهل الورود. وأقام أربعة أيام، يزور الصالحين الكرام ويتنزه في رياضها فيتذكر الشام وقد هزه الشوق فقال:

شوقي يزيد لكم أهيل ودادي

ويثير حَرًّ الحب بعد النادي

يا من رحلنا عنهم جسما بلا

قلب وقد نزلوا صميم فؤادي

إن غبتم عن ناظري ما بنتم

عن خاطري أبداً ليوم معادي

ثم عاد إلى القدس وأقام في خلوته على العادة، وجاءه صديقه الشيخ محمد المكي أبو فردة، تلميذ الشيخ علي عزّون، تلميذ الشيخ قاسم السفياني بللوشا. وسبب تكنيته أنه كان يلبس فردة على ظهره.

ودعاه الأخ نور الدين السعدي، وأدخله التكية المولوية، وكان ممن أخذ الطريق وانتسب لهذه الطائفة العلية، الحاج علي شعال السلطانية، وطبّاخ التكية الخاصكية، كان يبتدئ بالورد

من دار الاشتغاله بالشغل والطبخ ويختمه وهو مشتغل بأطواره. وكنت أرى عليه أثر المحبة غير أن همّ العائلة أتعب قلبه. وكان الشيخ قد شرع في شرح «المنبهجة في الطريقة المنبلجة» وفي النية شرح الورد.

ثم عزم على الرجوع إلى دمشق، وطلب الإخوان وصية، فكتبها لهم وأسماها «الوصية الجلتية للسالكين طريقة الخلوتية». وممَّن أخذ الطريق في الجملة، الحاج محمد بن نسيبة. وتخلّف خاله، فودّع الصخرة والأقصى وسار معه إخوانه إلى رؤوس المشارف وكادت تطير القلوب فرقاً عند الوداع. فبكى الشيخ بعد أن ودّعهم مراراً بدموع مدرارة وسار يقطع الفيافي بركب صغير إلى أن دخل الشام ليلة النصف من شعبان. ولم يطل مقامه في دمشق حتى عمر الخلوة الثانية في المدرسة البادرائية، وبعد العمارة ألّف فيها «الدرّ الفائق في الصلاة على أشرف الخلائق» وأرسل للإخوان في القدس نسخة منها. وأرسل له الشيخ مصطفى ابن عقبة كتاباً يطلب فيه رسالة توّضح شروط الخلوة ولوازمها فأجابه الشيخ لطلبه. وبعث إليه برسالة أسماها «هدية الأحباب فيما للخلوة من الشروط والآداب». فيكون قد أقام في رحلته هذه الأولى نحو سبعة أشهر.

الخطرة الثانية

«الأنسية للروضة الدانية القدسية»

وبعد أربع سنوات حنّ الشيخ إلى ربوع القدس ثانية فعزم على الزيارة مرة ثانية. وأسمى الرحلة القدسية هذه ذات العيون النرجسية (الخطرة الثانية الأنسية للروضة الدانية القدسية). وقبل المسير، جاء الخبر أنّ عرب الصقر أهل الضرر منعوا السبيل السلطاني، فتوجه إلى زيارة الشيخ عبد اللطيف بن حسام الدين البدر كياني والنجم الشعشغاني وجلس عند ضريحه «وعرضت عليه ما سمعته آذاني ففاحت رائحة عطر سيسباني»، ففهم إشارة شيخه أنّ الطريق فيه أمان. فودّع أهله وتوجّه في أوائل شعبان المبارك سنة ١١٢٦هـ. ورافقه في هذه السفرة الحاج إبراهيم بن حسن الذكاني والولد الأنجب الأرشد إسماعيل بن رجب وكلٌ منهما حرستاني. (وحرستي) هذه بلدة الصاحب الثاني لأمامنا الأعظم ملي القناني.

وكان مؤجر البغال للركوب وحمل الأثقال رجل يقال له العرمان فتوجهوا معه إلى قرية عرطوز «القصد أن يجوز إلى مجتمع القفل، كي للصفا نحوز». ولما واجه السيد حسن الراعي قرأ له الفاتحة. ونزل في القرية السائلة المياه لا المحصورة، واجتمع لديه نفر من القافلة.

وبات يتسامر مع الإخوان. وعند الصباح تحرك الرفاق إلى الرحيل وحملوا وتشاوروا ونحو الجبل وجهوا وجه التعويل فشاورني العرمان في سلوك الطريق السلطاني والتحويل عن السبيل الفوقاني، لأنه متعب لكنه بالأمان يرغب. فقلت ولو لم تسر مع الرفاق وتأمن في سيرك من الإشفاق، فقال أنا متوقف على أمرك الآن فقلت لما رأيته متوكلاً على الرحمن، سريا عرمان مصحوباً بالسلامة والأمان. فوجّه وجه بغاله ومسك الجادة السلطانية، ولم يلحقنا إلا نفر يسير لا يعُدّ في العير ولا النفير. وفي «أم الشراطيط» التي لا تسلم غالباً من التخبيط، واجهه ثانياً حسن الراعي فقرأ له الفاتحة، فوصل سعسع فارتاح قليلاً، وسار في نصف الليل على الطريق الوسطي الاعتدالي إلى القنيطرة، فإذا خانها خالي، فعمد إلى المنصورة، وقد عراهم التعب، فأخبر أن عين البلدة قبل قدومه استقى منها أحد عشر فارساً وأنَّهم من الصقور، وقد سلكوا النهج السلطاني، فجاء رجل لم يدره وقال

للعرمان، إنه يعرف طريقاً ثانياً فأتاه العرمان وأخبره فأشار على العرمان باتباعه. وسار إلى أن وصل الجسر فوجد فيه جنداً شيطانياً يتسلطون على المارة فهم أهل أذى عدواني، فتعدَّى الجسر إلى سهل لدى قرية يرتقيها العاني، فاشترى منها ما يلزم وبات هو وجماعته في أرض صفد. واستمروا في السير إلى الجب اليوسفي فلحقتهم القافلة وساروا جميعاً إلى المنية، ومنها إلى نابلس المحروسة، ومنها إلى البيرة المطموسة. وسبق أشخاص إلى المدينة وأعلموا بعض الإخوان، فخرج جمع منهم عند رؤوس المشارف للاستقبال، فزار الشيخ جرَّاح، وسعد وسعيد، وأستاذه صاحب البلدة سيدي داود، والتأييد عليه وعلى ولده الرشيد. وسأل ممن وفد عمّن تخلّف وما قصد فقيل إنهم تألفوا على الغير ولذا تخلفوا.

وكان السيد أحمد القادري البغدادي نزل الخلوة الرصاصية، التي كان نزل فيها في الخطرة الأولى، فكثرت الورّاد وزاره السيد أحمد، وردّه الزيارة. وممن جاء للسلام مع إخوته الشيخ أحمد الموقت. ودخل شهر الصيام ودعاه بعض المحبين لضيافته في الجرم، وأكثر فيها من دعوة المشايخ وأرباب الخدم، وكان منهم الشيخ أحمد الموقت، فاختلى به الشيخ، وعاتبه على عدم مجيئه بعض يوم أو ليلة فأعلمه أن الحياء يمنعه.

وانتقل إلى خلوة السيد جار اللّه القريبة من مصفة العوافي، لئلا يعكّر على شيخه الشيخ محمد الخليلي المصافي، بالذكر والأوراد الصبحية فيما يستعمله من النصائح الحكمية، بعد الصلاة الفجرية، وكانوا يتعاطون أمر الزاد في دار السيد مصطفى ابن عقبة. وكان خلق من الخواص والعوام يحضرون لاستماع الورد منهم الأخ الشيخ أحمد. وممن دعا الشيخ وكرّر الدعوة الشيخ نور الدين الهواري وقاضي البلدة كتخد زاده. وفي أواسط شوال قدم القدس الوزير المرجب رجب باشا والياً مدبراً[1] «وفيه توجّهنا صحبة السيد أحمد القادري المقرب إلى زيارة الكليم. وكان معي الأخ الحاج إبراهيم».

وكان الأخ الشيخ أحمد لازمني في الخلوة البيرمية الصغيرة، حين هجم البرد ودخل الشتاء. وكان الحاج محمد نسيبه قد أتى من مصر فنقلنا (لدار الأوضة) واقتصرنا بالناس إلا من يقصدنا من إخوان. وممن جذبه نظره إلينا، الشيخ عبد الحق نجل الشيخ نور اللّه الجماعي «وغيره من إخوان وأحباب وأخدان وموقتنا والهواري لم يقطعا التردد عن داري». وتردد عليه إمام

---

(١) في المادي أن الوزير رجب باشا (سنة ١١٣١هـ) قدم إلى مصر من جهة دمشق لزيارة بيت المقدس فزار صاحب الترجمة، وصار له فيه مزيد الاعتقاد ولما ذهب إلى مصر استصحبه معه فدخل مصر وأقام بها مدة.

الوزير محبه إبراهيم أفندي الخطير وطلب الوزير المذكور الجمعية فأجاب بشرط أن تكون في المغارة الألمعية. ويقول الشيخ «ومنها تعلق قلبه وازداد بنا حبه».

وتشاغل الشيخ في تلك الأيام في كتابة «الضيا الشمس» وأمر الأخ الحاج سلامه بنسخ ما يكتب منه. وكان يقابل ما يكتب ليلاً ويزيد فصارت المبيضَّة مسودَّة. وكان الهواري يأتيه وربما ساعد وما تباعد. وبيَّض فيها «الوارد الطارق واللمح الغارق» وجمع في هذه الدار «جمع الموارد من كل شارد» وكان وهو في الديار الشامية يكتب ما عليه في أوراق والبعض يبقيه والبعض يلقيه في النار للإحراق فانتقى ما جمعه وقد توعك منه المزاج ثلاثة أيام لدمٍ هاج، فجاء الرئيس محمد بعلاج مناسب وحصل الابتهاج. وحين اشتدَّ البرد وامتدَّ سحُّ الأمطار طلب إخوان كبار وصغار دخول الخلوة. فأجابهم لذلك، مدلياً على قوس العقد الذي في إيوان الدار، وأمر الطلاب أن ينفردوا كل واحد في بيت خلوة ولو بإحرام أو إزار. وممن ترجّى الدخول الولد الملحق بأهل الحق الشيخ عبد الحق. فأقام بيت خلوته عن يمينه وجعله خازنه وأمينه، والسيد أحمد بن أبي النصر رتبه إماماً في ذلك القصر، وجعله عن يساره، وأمر الأخ الحاج إبراهيم أن يتقيَّد في الأوراد. وأن يغلق الباب مخافة القُصَّاد. ولا يفتحه إلا قبيل الغروب لأجل

طبخ الحريرة وأن يحضر عقب العشاء وانفضاض الوارد عن الخلوة البيرمية ليسمعهم قصائد إنشاد. فكان يجيء ويشدو فيطرب الجماعة ويطلبون سكان العراق ونجد. وإذا راق الليل طفح من السرور الكيل.

ثم إنَّ صديقه الشيخ أحمد بن محمد الموقت اشتهى دخول الخاوة في الأوضة الصغيرة، فتبعه الشيخ إسماعيل والشيخ نور الدين، ولم تسع الخلوة غير الأربعة، وصارالبواب ابن نسيبه، ووقعت عليه في الإمامة القرعة، وكان الطالب على اليمين، ونور الدين على الشمال، والولد إسماعيل في القرنة الثانية.

وعندما انتصف ذو الحجة توجه الوزير لمعان لملاقاة الحج العطير على طريق معان وزار في مسيره الخليل. ورأى الشيخ الوزير في المنام وقد خلع عليه ثلاث خلع عظام، فاخرج له من عبِّه السيوف الحداد. وأمره أن يحتفظ بها. ولما أفاق غلب على ظنَّه أنه يحارب (العرب) وأنَّه في خطرته يَغْلِبُ، فلا يُغلب، لأن السيوف صارت في يده. فكان ما ظنه الشيخ. إذ أخبر بذلك لما عاد من سفرته بعد ما نزلت الأمطار وعم الربيع وجه الأرض. وأخضر الغور وأزهر.

تحرك الشيخ للزيارة الخليلية صحبته رفقه، فساروا ودهمهم قطاع الطرق دهمة متعبة عند القيقبة ولكن اللّه سلَّم. ونزل في

حاصل الخليل، ووضع في هذا الحاصل رسالة: «الصحبة التي انتخبها الخدمة والمحبة» وتمت في صفر سنة ١١٢٧هـ.

وشرع في كتابة رسالة «نظم القلادة في معرفة كيفية إجلاس المريد على السجادة» وشرع في خطبة كتاب سماه «فيض الجليل في أراضي الخليل» ورتَّبه على مئة وخمسين باباً ومقدمة وخاتمة، وعرض الفكر على كبير الجماعة من أهل الخليل فأثنى عليها. وممَّن أخذ الطريق عنه إبراهيم الخليلي والحاج دياب والشيخ محمد القيمري والطرعاني وغيرهم. وكان يقرأ الورد السحري في الحضرة وكان الحاج إبراهيم ينشد قصيدة في حماة الغار مطلعها:

أيا ساكنين الغار والمنزل الأحمى

أغيثوا معنًّى من لظى شوقه أحمى

ولم يجتمع في الخليل بالشيخ أبي زيتون بل بالشيخ محمد أبي جاعد وبعد أن ودَّع حُماة الغار وأهل الجود والكرم بات ليلة الثلاثين في قرية سيعير (سعير) وكانوا نفراً قليلاً. ونزل على قرن البرك، وقد لطف الحق بهم دارك وأدرك. وصلى الظهر في بيت لحم ودعي إلى البيات على أرز ولحم فامتنع. إلى أن وصل القدس.

ولما نمى الربيع، عزم على زيارة السيد الكليم، وكان عدد المتوجهين سبعة عشر نفراً، وخشي الصداع كالمرة الأولى فأسرع بالزيارة، وكان في خلوة تحتية ولصيقة في أخرى، الشيخ أحمد صحبة أخيه الشيخ محمد ومعهم الشيخ عبد المعطي. والسيد خليل الإمام بالأقصى في أخرى. وتأخر عنهم شيخه الشيخ محمد الخليلي وصحبهم مغربي خفيف مقرئ هو سيدي عبد اللّه الشريف. وأقاموا في المقام ثلاثة عشر يوماً وزار في رجوعه نبي اللّه العزير.

وبعد ليال توجه لزيارة «الخليفة» داود. وكان الوزير المشار إليه فتح باباً في الزيارة، وعمل الستارة، وأحيا وقف الخليل وأدار سماطه الجليل، وعمّر نبي اللّه شموئيل، وقصر من الصخرة المغارة وفرشها وأرخى عليها ستارة.

ولما دخل فصل الربيع انتقل إلى البيرمية وصار يبيت في الخلوة الصغيرة، ثم بدا له زيارة سيدي علي بن عليل، بعدما الوزير المشير قدم من سفره العطير، فعزم على السير وتوجه معه الأخ أحمد والولد الأرشد إسماعيل وإبراهيم الحادي. كاون[1] الأخ السلفيتي قدم من الشام. واستأذن في سكنى قرية حجّه. ولما وصل إليه بمن معه سُرَّ وجمع الجمع في خلوة الجامع وتوجه الأخ إسماعيل منها إلى نابلس المحروسة.

---

(1) الأصح لكون الأخ.

وكان مراده الصحبة في الزيارة، ولكن خشي أن يسبقه القَفْلُ والرفاق فلا يمكن بعد سيرهم اللحاق، وأقام هناك أياماً. ثم هيأ له الأخ السلفيتي زيارة الحرم العليلي، وبينا هو وصحبته جلوس على ربوة يسرّحون الطرف في البر والبحر المحروس، إذ أعلام وإشارات في السهل بادية، وخيول تتجارى، فجاء الرفاق واصطفوا للفرجة اصطفافاً، فقيل: الشيخ محمد الخليلي قادم للزيارة من يافا. فنزل للقائه الأكثر فرحين بقدومه. فقال: إنه لما مثل له أن فلان هناك أسرع للزيارة. فقال الشيخ «في الخطرة الأولى اجتمعنا بالشيخ نجم الدين الخيري وفي هذه بكم، فالحمد للّه المنمي خيري».

ولما زار، دعانا إلى السير معه نحو يافا فتشوق إلى ذلك الأخ أحمد وامتنعت أنا أولاً ثم وافقته وقصدنا وبتنا لدى الشيخ[1] ثم يقول «وعدت فوصلت النهر (نهر العوجا) ولم ندر مقطعه، ووقفت وقدَّمت الأخ السلفيتي، فكاد يغرق ثم هداني اللّه لقطعه من جانب البحر فرأيته سهلا فحمدت ربي، وبعد ذلك رأينا فلكاً في البحر تجري بانحدار فخشينا لوجود «قرانصة» فيه (أي لصوص) أن تكون مملوءة بالإفرنج، فصعدنا الجبل وبعدما بعدت الفلك نزلنا الشط واجتمعنا بالإخوان الذين كانوا في مقام (سيدنا

(١) كان الشيخ محمد الخليلي يملك قصراً على شاطئ البحر. ولا يزال أحفاده يملكونه حتى الآن. وكان له «بيارة» برتقال معمورة.

علي). وقضينا بعد ذلك اليوم حتى أتينا (كفر سابا) فزرنا سيدي بنيامين وسيدي سراقه وفي القاموس سراقة كيمامة، ابن كعب وابن عمرو وابن الحرث وابن مالك المدلجي وابن عمرو ذو النون صحابيون». وتوجه بعد ذلك إلى (جيوّس) لدعوة فقير مأنوس. وكان قد أضافهم أولاً حال الذهاب في قريته وثّناها آخراً حالة الإياب لما عاد إلى الشام «ودخل ذو الحجة من عام ١١٢٧ فحبب لي وضع رسالة «تشييد المكانة لمن حفظ الأمانة». «وثاني» يوم أتينا قرية عزون لأن وليمة عرس الأخ سلامه القوصيني بها تكون». وقلت لما نزلت تحت الزيتون موالياً» :

أهل الحمى والحيا الكل عزوني

لما تذللت في الأحزان عزوني

ومنذ[1] تفيأت في زيتون عزون

للخان في الحال أضافوني وعزوني

وجاءنا فيها على هيئة الساعي رجل ينتمي وأخبر أن بعض الأوباش أشاع خبر أسر أهاج القلب الظمي، وكدَّر عيش الإخوان وضاق ذرع من أحب من أعيان، حتى إن الوزير وعد أنه يلزم أهل التحقير بإعادة الفقير بعزم كبير، فقلت الحمد لله العلي الكبير

---

(١) الأصح عروضياً، (ومذ).

الذي أراحنا من الأتعاب وردَّ الكذاب. ثم عاد للقدس. وزار النبي شموئيل مع محمد السلفيتي وبات ليلة «وفي الصباح ورد خبر قدوم الوزير المعتبر فجعل العود من غير طريق لئلا يراه فيلزمه بالتعويق» ولما وصل الحرم وجد المقال صحيحاً.

وأرسل الشيخ محمد الخليلي رسولاً ومعه كتاب يدعوه إلى الزيارة ملوِّحاً إن جناب الوزير طلب ذلك وصرح بالعبارة وأمره بإحضار إخوانه. فعاد مع الأخ أحمد ومحمد السلفيتي ونور الدين وإبراهيم. وجلس هو وجماعته الأخ أحمد والسيد محمد السلفيتي ونور الدين وإبراهيم الحادي وشم[1] في السير إلى الزيارة عرف طنطور الجندي، ولما أذن العشاء أجلسه لديه وقربه إليه، وأمره بالذكر، وجلس هو فوق المصفة، وكان الوزير حاضراً المجلس، فطرب للإنشاد، وأرسل إلى محب الدين النقيب (خرجية) وأرسل للإخوان مثلها. فتفرقت من أصلها. وكان يدعوهم لتناول الزاد لديه. وسأله عن المنشد وهل يمكن أن يقيم في الحرم ليعيِّن له ما يحتاج إليه، فاعتذر بأنَّ له والدة كبيرة ووالداً عاجز الحركة فرضي بعوده، وقال هما بركة.

وخرجوا إلى الشيخ (بادار، الشيخ بدر) وأقاموا بجواره في كرم فسيح. وكانوا يترددون على الخليفة (أي النبي داود)

---

(١) كذا ربما كانت وهم.

والطور. وتوجّه صحبة الإخوان إلى التكية الأدهمية، وأقام الشيخ أحمد خليفة على الجماعة، ولقّنه الاسم الخامس واحضر له السجادة وأجلسه عليها.

وكان أكرى مع الحاج محمد بن كريم خضر، وسار معهم السلفيتي، وصحبهم مصطفى بن عقبه، وبات في قرية عين يبرود. فجاءهم صديق اسمه عابد العسقلاني، وطلب منه ورداً للمسافر. فكتبه وأعطى منه نسخة إلى القدس ليدفعه للشيخ نور الدين الهواري. وسار إلى نابلس المحروسة، ونزل عند مصطبة التوتة الدرويشية. وجلس في جامع صغير قريباً من الرفاق ومضى الأخ الخفير والسيد مصطفى العقبي. ولما بلغ سيفي اغا الكلشني نزوله في المحلة دعاه إلى الدرويشية وهيأ له محله وبات فيها، وزوّده زاداً ومشى معه آخر الليل بالقنديل إلى منزل الرفاق. وواصلوا السير إلى القرية وودّع الأخ السلفيتي، وساروا يقطعون على طريق بلاطه، جاحولا والخيط وهو طريق وعر تقطعه أحياناً المتاولة. فقطعه بأمان. وأتى (الملاحة) فنزل لدى الطاحونة القريبة، وهناك شرع في خطبته (تسلية الأحزان وتصلية الأشجان) وتكلم على سر الطاحون وسار إلى (حاصبية) وحضر السوق، وسرى مع السوّاق إلى كفر قوق، وكان الحر اشتد وبات فيها وسار لدمشق وسبق الأخ الحاج إبراهيم معلماً بقدومه الأخ

الشيخ عبد الكريم . فنزل داره بعد السلام والاكرام وكان الحر قد أثرّ فيه . وكان قد هلّ هلال رمضان وتوجه إلي القيمرية ونزل دار والده بالرضاع الحاج أحمد والد الحاج إبراهيم زوج والدته . وأقام في القلعة وورد عليه الأحباب . وجاء الولد النبيل إسماعيل مسروراً باجتماعه . وكان ألبس الولد أحمد كسوة الطريق للتبرك فقال الشيخ عبد الكريم لا ترفعها يا أخي بعد الآن .

وبعد أيام بادر للخلوة الجديدة . ودخل شوال فأكمل مسودة (التسلية) وبيضها في جمادى الأولى (١١٢٧) وأرسلها إلى الشيخ الأمجد الشيخ أحمد في أول شوال ١١٢٧هـ.

وعزم الشيخ عبد الكريم على الحج نائباً عنه فلما وصل (العلا) وهو قافل من الحج توفي ودفن بها . واستقام بالشام من (١١٢٨هـ) . إلى مضي الثلثين من شهر رجب فتوجّه إلى حلب المعمورة . وسمّى الرحلة (الحلّة الذهبية في الرحلة الحلبية) وقبل التوجّه ، أرسل للأخ الأمجد الهمام مكتوباً (زيتونة ودّه نورها يتوقد، وكوكب سعده مشرق بالودّ توقَدَ) وقصيدة مطلعها :

إذا مـــا الليل يا أحـــبـــاب جنّا

على المشـــتـــاق بالأتواق جنّا

* * *

رحلة

«الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي»

«سوانح الأنس برحلتي لوادي القدس»

نشأ الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي في دمياط ونزل دمشق وولد سنة (١١٠٥هـ-١٦٩٣م) وبعد أن تّعلم، حّج وأخذ عن علماء مكة والمدينة، وكان فَرَضياً[١]، ومن أشهر تآليفه هذه الرحلة وهي مخطوط نفيس أعددناه للطبع، وله ديوان شعر ومن قوله :

شطّ النوى بأحبتي فجفوني
فتواصلت بالمرسلات جفوني

توفي (١١٧٨هـ-١٧٦٤م) ودفن بدمشق. ورحلته هذه تتناول السفر من دمياط إلى صحراء سينا فغزة فالرملة فيافا فالقدس، وما جاورها، فدمشق فصيدا فقبرص فدمياط. دفعه الشوق لزيارة الأماكن المقدسة، فسار يوم الثلاثاء من ذي القعدة سنة (١١٤٣هـ-١٧٣٠م) من ثغر دمياط بلده، بعد أن صلى

---

(١) أي عالماً بالفرائض، المواريث.

الظهر، وقرأ الفاتحة لسيدي فاتح، وتوجّه إلى البحيرة فركب من السفن أجراها ومرّ بسيدي شَطا والقرشي والبغدادي والتفاحي والدابر، فوصل ثاني يوم فم أم مُفرّج، ومن هناك ركب متون الصافنات فنزل قلعة الطينة، قريب الغروب. وسرى[1] بعد العشاء إلى «الرماني» فنزل بني هشيم، فوصل قرب قطية، عند الزوال وما زال يجدّ حتى وصل وقت الغروب إلى بئر العبد، فإذا ماؤها مّر المذاق. واستمرّ في سيره إلى أن وصل العريش، يوم الجمعة قرب المغرب. وبها مقام محمد الدمياطي.

ومنعهم أكابر العريش أن يحلّوا بها خوفاً من الطاعون الذي كان متفشياً في مصر حينئذ فنزل بظاهرها، وأقام في البستان إلى يوم السبت فسرى قاصداً إلى خان يونس، فوصل وادي الخروبي آخر الليل وفي الصباح أكمل سيره فوصل رفح، وسط النهار، وهو أول أرض الشام. وبه بئر يقارب النيل في عذوبته. وبعد أن صلّى الظهر سار لساعته فوصل خان يونس، وقت العصر وبات بقلعتها.

وعند الصباح قصد غزة فوافاها ضحوة النهار ويقول عنها «وُصلت بصولجان الفكر في واديها عندما كشفت نقابها وتجّلت للناظرين في حلل إعجابها فإذا هي بحبوحة جنان وللحمائم

---

(١) كذا والأصح سرى أي سار ليلاً.

بروض زهورها ألحان» فنزل في خانها (المعروف بخان الزيت الآن وهو يجاور الجامع الكبير) «مع بعض الرفاق، وهو مما به من عسكر الدولة في غاية الإشفاق». فلسعته براغيث الخان وحرمته لذيذ المنام فتذكر قول بعضهم:

عندي براغيث سوء كلها اجتمعت

قد بيَّتوني بأنواع من الغصص

يروح هذا يجيء هذا فأقنصه

فتنقضي ليلتي في الصيد والقنص

كما هجم عليه الناموس «البعوض» وأزعجه بأنغامه.

ولما أصبح الصباح أقبل عليه صديقه السيد محمد المكي وأقسم عليه بالنزول في داره أو بقصر ببستان له بجواره فامتثل لأمره، وذهب معه إلى بستانه البديع، ووفد عليه هناك الطبيب الريس الشهاب أحمد الريس الحكيم وهو من حذَّاق الأطباء فُسرَّ به وشفاه بقانون لطفه، (والسيد أحمد هذا هو ابن السيد محمد الريس الذي ترجمه المرادي) فقال: «إنه أحد المتفردين بعلم الطب، وله فيه تآليف، وقد عرَّب غاية البيان التي بالتركية توفي ١١٣٠هـ».

وزار بعد ذلك المشاهد، منها الدار قطني وعلي بن مروان والشيخ أبو العزم، وسيدنا هاشم، ومكان مولد الإمام الشافعي إلخ. ثم الجامع، ويقول: (فرأيت غالب البلاد خراب من ظلم الأمراء وتحكم لمط الأعراب فارتحل عنها آسفاً).

وسرى يوم السبت صباحاً قاصداً خان (سدود) وما زال بين نغمات أطيار، ونفحات معطرات الأزهار، حتى وصل الخان وقت العصر، فبادر إلى الصلاة، وزيارة سيدي إبراهيم المتبولي الصوفي توفي (٨٨٦هـ) ولما ذهب ثلثا الليل، قصد رملة فلسطين، ومرَّ على (يبنى) وقت الفجر، وصلَّى الصبح، ويقول: «ليس المدفون بها أبو هريرة وإنما بعض ولده» ولاح له جامعها الأبيض، فنزل عند صديقه السيد عبد اللّه نخلة، فأكرمه وأنزله بداره، فبدأ بزيارة الجامع الأبيض، ومغارة النبي صالح، ثم يصف المنارة فيقول: «وبالمسجد المذكور مغارة عجيبة ظريفة في الشكل غريبة لم ير السواح مثلها، ولا حسن صناعتها وشكلها وكأنما فرغ المعمار الآن من بنائها مع قدم إنشائها وهي من بناء الملك الناصر بن قلاوون» (٧١٨هـ) ثم يذكر ما جاء في الأنس الجليل (٩٠١هـ) عنها فيقول: «والرملة واسطة بلد فلسطين فإنها في أرض سهلة وهي كثيرة الأشجار والنخيل وحولها كثير من المزارع والمغارس وفيها أنواع الفواكه وظاهرها حسن المنظر، وهي

من جملة الثغور، فإنّ البحر الملح قريب منها نحو نصف بريد، من جهة الغرب، وكان لها سور محيط بها، وقلعة واثنا عشر باباً. وكان حولها أربعة آلاف ضيعة وقد هدم السلطان صلاح الدين قلعتها وقلعة لُدٌّ في سنة ٥٧هـ و١١٩١م. وأما في عصرنا أعني سنة تسعمائة هـ (١٤٩٤م) فلم يبق أثر لتلك الأوصاف والأسوار لاستيلاء الإفرنج عليها نحو مئة سنة، ولم يبق من المدينة ثلثها، ولا ربعها، وبني فيها مساجد مستجدة في زمن السلطان صلاح الدين الناصر محمد بن قلاوون وقد صار المسجد القديم بظاهر المدينة من جهة الغرب، وقد بنى فيه الملك الناصر المذكور منارة من عجائب الزمان في الهيئة والعلو سنة ٧١٨هـ (١٣١٨م) حكى المسافرون إنها من المفردات ليس لها نظير ولم يبق حول الجامع من الأبنية القديمة سوى حارة بجواره من جهة الشمال، حكم القرى، وإن المدينة يومئذ تقهقرت ونقصت جداً، وقلّ ساكنوها، ومع ذلك فهي مقصودة بالبيع والشراء، ولا تخلو من بركة في معيشتها، كبركة أرضها، وسكانها من الأنبياء والصحابة والعلماء والأولياء». ثم يقول: «فهذا في زمنه سنة تسعمئة فما بالك الآن فلم يبق من تلك المحاسن إلا الأشجار وغالب أهلها تخطفتهم أيدي الأقطار لكنّ بركتها باقية على الدوام، يدرك ذلك الخاص والعام، فمن جملة من حلّ بناديها ودفن بروضة واديها الذكي

سيدنا الفضل بن العباس ابن عم النبي (صلعم) ورديفه في حجة الوداع وهو الذي غسل النبي حين وفاته. استشهد في طاعون عمواس بالرملة، سنة ١٨ للهجرة (٦٣٩) وبشرقي المسجد قبر الإمام المحدِّث رحيم بن أبي سعيد، وقريب منه قبر الحافظ النَّسائي صاحب السنن ومقابله ضريح أبي حجلة الولي، وهناك مقام لسيدنا علي بن أبي طالب وبقربه مسجد به مقاما السطوحي والشيخ أبي العون، وبقربه ضريح الشيخ العلمي، وفي المدينة عدة مزارات كالشيخ البطائحي والعدوي بحارة العنابة، والأشموني والقبي».

وبعد أن قرأ لهم الفواتح صار يتأمل في تلك المدينة وشوارعها وينظر إلى قصورها واندراس مدارسها وجوامعها. وبات تلك الليلة عند صديقه السيد عبد اللّه مسروراً، ولما أصبح الصباح سار برفقة أعزاء إلى اسكلة يافا ضحوة النهار. فتلقاه شريكه وصديقه سيدي أحمد النجار لقاء حسناً. وذلك في أوان فصل الربيع.

ويقول الشيخ «ويافا بلدة ظريفة على ساحل البحر وهي اسكلة للرملة والقدس ونابلس ونواحيها وبظاهرها بساتين ذات أنهار وأشجار وفواكه وأزهار فما زلت أردد الطرف في رياضها الأنيقة وأروِّح الروح بلثم ثغورها زهورها العبيقة إلى أن صليت

الجمعة بجامعها اللطيف وورد الإذن بالمسير إلى القدس الشريف». فعزم على السير وقصد الرملة مع رفيقين فامتطيا الخيل وساروا فمروا عن حيدرة بقرية يازور، ولقمان بصرفند، فوصل الرملة قبيل الغروب، ونزل عند السيد عبد اللّه نخله، والمسافة بين يافا والرملة أربع ساعات بسير الصافنات الجياد.

وامتطوا الخيول في الصباح، وساروا يقطعون تلك المهامه الصعبة المرمية، إلى أن وصلوا قرية (قلونية) وصعد العقبة فلاحت له بيت المقدس فوافاها قبيل العصر. فقرأ الفاتحة عند الباب «واستأذن بالدخول مَنْ بها من الأوتاد[1] والأنجاب فإن ذلك من حسن الأدب». وللمدينة سور محكم البنيان، بديع الشكل، في الصناعة والإتقان، له ستة أبواب منيعة غريبة، في الوضع بديعة، وهي باب الأسباط، وباب الساهرة، وباب العمود، وباب الخليل، وباب داود، وباب المغاربة (وهناك في الجهة الشمالية باب يعرف بباب الجديد فتح في القرن التاسع عشر).

ثم دخل المدينة من باب الخليل، فنزل في دار السيد مصطفى البكري الصديقي، ثم ذهب لزيارة الحرم، وثاني يوم ذهب لزيارة شيخ مشايخ الإسلام وعمدة العلماء الأعلام مولانا الشيخ محمد الخليلي عمدة الأئمة الشافعية فقابله بوجه السرور.

---

(١) الأوتاد: تقياء الرجال ممن يثبتونها فلا تحبه، أما الأنجاب، فهم أتقياء الصوفيين أيضاً.

ثم فرض له الأستاذ الصديقي خلوة سنية، على طرف سطح الصخرة، مقابلة للمدرسة السلطانية، وابتدأ بالزيارة، فزار البراق واصطبل سليمان ثم سور المسجد وأطل على وادي جهنم فإذا به مقبرة طائفة من اليهود، ثم توجّه إلى باب الرحمة، وبعد أن يصف المسجد بما لا يخرج عن حالته يقول «وبالمسجد عدة أشجار من زيتون وغيره».

ثم توجّه لزيارة القلعة، وارتقى إلى أعلاها، عند شباك، كأنما هو لصيد النسيم شباك. ثم ذهب لزيارة طورزيتا، فخرج من باب الأسباط، فمر بمقبرة باب الرحمة، وزار الصحابيين شدّاد بن أوس وعبادة بن الصامت، ثم مر بالكنيسة الجثمانية، فوقف ببابها، وقرأ ما تيسّر ثم صعد إلى الجبل. ويقول إنَّ صفية زوج النبي قدمت القدس، فصلّت وصعدت طورزيتا، وقامت على طرف الجبل وقالت «من هنا يتفرق الناس يوم القيامة إلى الجنة أو النار». وبجانب مصعد عيسى زاوية بأسفلها ضريح الشيخ العلمي (شمس الدين محمد العلمي القطب الزاهد) وزوجته، وقريب منه مكان به قبر رابعة العدوية، ومن وصاياها «اكتموا حسناتكم كما تكتموا سيئاتكم». أوردها السهروردي.

وبالجبل جماعة من الشهداء بقية عالية وبه قبر الصحابي سلمان الفارسي. ثم توجّه إلى قرية العيزارية، وزار بها قبر نبي

اللّه «العزير». ودعاهم للنزهة رئيس خطباء الأقصى الشيخ نور اللّه الجماعي، ويقول وتوجهنا معه إلى بستان نفحت أزهاره، وخطبت على منابر أيكه أطياره» (نرجّح إنه قصر الخطيب بوادي الجوز).

وابتدأ بزيارة الخليل فزار مقامات الخليل إبراهيم، ثم زوجته ثم أولاده، وزوجاتهم، وسارع لزيارة سيدنا لوط بقرية كفر بريك وهي بني نعيم الآن، ثم توجّه لمسجد اليقين، وهو على فرسخ من حبرون[1] على جبل مشرف على بحيرة زعر، وبظاهر المسجد مغارة بها قبر فاطمة بنت الحسين. وقد أكرمهم الشيخ صبيح التميمي الداري. وهو خادم سيدنا لوط. ثم رجع إلى المسجد الإبراهيمي وصلّى. وقصد بعد الصلاة زيارة المشاهد، فزار الولي ابن رفاعة والشيخ الجعبري والشيخ علي البكا والشهداء، وجلس تحت شجرة البطمة (هي شجرة بلوط) وقيل لها أربعة الآف سنة من الغراس.

وزار بقربها سفح جبل لقون. ومرّ على «عين سارة وعين قشقلة» وشرب من مائها المعين. وبعد الصلاة بالحرم دعاهم الشيخ سليمان الزر، وأحد خدام المقام، وسامرهم تلك الليلة.

---

(١) مدينة الخليل ذ.

ولما هزم الصبح جيش الظلام نادى أمير الركب أسرعوا بالخيل، فودع المقام وسار مسرعاً للقدس، فأقبل على سيدنا يونس بحلحول، والعيص بسعير، ومتّى ببيت أمّر، فقرأ ما تيسر، ولم يتمكن من الولوج إلى رحابهم، خوفاً من قطّاع الطرق الفئة الباغية.

وقد بنى المسجد بقرية حلحول الملك المعظم عيسى (ابن الملك العادل أخي صلاح الدين وواقف المدرسة المعظمية والنحوية ومرمّم الغزالية بالقدس) ثم الغزالية بالقدس)ثم سار فوصل بيت لحم. فنزل ببيت الضيافة المعد للخاص والعام فأسرعوا باحضار الفاكهة والطعام، وبعد الانتباه من النوم وصلاة الظهر، توجّه لمحل مولد عيسى عليه السلام ومحل النخلة. ثم قصد القدس، فمر بضريح راحيل، أم يوسف قريباً من بيت جالية (بيت جالا) على قارعة الطريق فقرأ ما تيسر.

ولما وصل القدس زار خليفته داود واجتمع (بخدمة ذلك الجناب فإذا هم من الموالي السادة الأنجاب).

ثم انتظم في سلك الطريقة الخلوتية ولقّنه الأستاذ الأعظم (أي البكري) الاسم الأول وقت الغروب، عند باب الزحمة، وأمره بالاستعداد لدخول الخلوة، فأدخله الخلوة بمنزلة ليلة الثلاثاء وقت العشاء فمكث فيها إلى غروب يوم الخميس.

وانقضى رمضان، ففي ثاني يوم العيد، سار إلى بئر أيوب، وعين سلوان، فشرب من مائه المعين، واغتسل في عين سلوان، ثم سار فمرّ على قبري (زكريا ويحيى) بذيل جبل الطور بقبتين بديعتي الإحكام المقول فيهما طرطور فرعون وكوفية زوجته كما هو مشهور.

وزار الزاوية الأدهمية، البديعة الإتقان، وقال إنها من العجائب، وورد ضريح الشيخ جرّاح وقرأ الفاتحة لسعد وسعيد، ودخل مغارة الكتّان (مغارة سيدنا سلمان).

وزار بعد ذلك مع أصحابه مقبرة ماملا (مأمن اللّه) وفي الحديث (من دفن فيها فكأنما دفن في السماء). فزار فيها الشيخ عبد اللّه القرشي (٥٩٩هـ). وشهاب الدين بن أرسلان شارح سنن أبي داود (٨٤٤هـ). وابن الهائم شيخ العلوم الرياضية (٨١٥هـ)، وبرهان الدين بن جماعة (٨٧٢هـ). والشيخ أحمد الدجاني القطب (٩٦٣هـ). والكمال بن أبي شريف (٩٠٦هـ) إلخ.

ثم عزم على زيارة السيد الكليم فخرج بعد الصلاة، ووصل عند الغروب مع بعض رفاقه، وسار في جبال وأودية وعقبات ويقول: «فمرّغنا الخدّ بأعتابه واكتحلنا بعبير ذلك الثرى». ثم زار مقام الراعي ثم عاد فزار نبي اللّه العازر.

ودعاه الشيخ محمد الخليلي لزيارة أبي ثور المجاهد، فوصل إلى قريته (هي محلة دير أبي طور أو الطوري الآن بالقدس) ثم توجّه إلى أرض البقعة (هي الآن ثكنة الجنود الإنكليز المعروفة بتلفيرا) وكان للشيخ قصرٌ هناك. وأقام يومه يجتلي من ذلك الروض ويقول: «وهذا الوادي هو الذي رأى فيه النبي (صلعم) ليلة المعراج. وكان بهذا الوادي قصور وبساتين محتها توالي الأيام وتعاقب السنين». وذهب ليبيت في مقام النبي داود. وبعد ذلك دعاه الأستاذ البكري إلى باب الرحمة ولقنه الاسم الثاني للسادة الخلوتية ثم أمره بالتزام الخلوة فدخلها ليلة الأثنين وطلع ليلة الخميس.

واجتمع بالقدس بالشيخ مصطفى البكري الصديقي أستاذه الأعظم والشيخ محمد الخليلي رئيس الشافعية وقد أجازه، ويقول عنه (وحضرة مولانا الشيخ المذكور فضله في جميع الأقطار مشهور، وهو مقصد لذوي الحاجات، وموصوف بإجابة الدعوات. والشيخ أحمد، الموقت بحرم القدس المالكي، وكان يباحثه ويرجع إليه، ومنهم الشيخ على الدغستاني فقد طالع عليه الرسالة القشيرية بالمسجد المقدس بالمدرسة السلطانية[1] وهو من المتصوفين، ومنهم أبو بكر العلمي مفتي الحنفية بالقدس، ومنهم

---

(١) يستدل من هذا أن المدرسة السلطانية كانت عامرة في سنة ١١٤٣هـ.

العابد الشيخ عبد المعطي الشافعي الملازم للمسجد بالمدرسة النحوية)[1] (أسسها الملك المعظم عيسى بن العادل سنة ٦١٤هـ).

ويقول الشيخ: (ولم يجتمع بأحد من أهل القدس إلا ببعض أفراد من الذين لهم صدق محبة لنا وحسن وداد، فإنَّ في العزلة عز دائم ونعمة وهي والصمت من تمام الحكمة).

وعزم أستاذه البكري الصديقي على السفر إلى ناحية نابلس الفيحاء، وواديها للزيارة فرافقه جماعة من تلامذته المسترشدين، وركبوا الخيل يؤمون مقام النبي صموئيل(اشمويل) وهو بحمى قرية (الرامة). ويقول الشيخ: «وكان هذا المقام تحت اليهود يتعبدون به، ويأتون إليه بالنذورات من الحلي والملابس والفرش ويضعونه في المغارة التي فيها قبر النبي (اشمويل) عليه السلام ثم يحرقون تلك الأمتعة تقرباً بزعمهم في هذا المقام، إلى أن ظهر أستاذنا ومولانا الشيخ محمد الخليلي بالقدس المحترم ونفذت كلمته في تلك النواحي، حتى صار أشهر من نار على علم، فأمدَّه الفيض الإلهي الرباني واستنفذه من أيديهم بخط شريف سلطاني، وسدَّ باب المغارة، وبنى منارة عليه، وأقام شعائر المسجد، ومنع اليهود عنه بالكلية، فصاروا لا يأتون إليه[2] خفية،

---

(١) كان بها عشرون طالباً يدرسون النحو، وكان الملك المعظم نحوياً أديباً.

(٢) كذا وربما كانت إلا خفية.

وهم خائفون، ويقفون خارج المسجد، وأما دخوله فلا يستطيعون. فجزاه اللّه تعالى أحسن الجزاء وعامله بالإحسان وبوأه أعلى فراديس الجنان، فكم له من مآثر وخدمة وحسن قيام بأضرحة الأنبياء الذين بتلك النواحي «توفي الشيخ محمد الخليلي سنة ١١٤٧هـ».

وصعد إلى العلية واضطجع بجبته إلى الأرض، فبرد وأورث داء القولنج، ثم سار وهو يتألم، إلى (كفر قريع) فأكرموهم بالفاكهة والطعام، ونام وأسرعوا إلى (دير قديس) «فتلقاه أهلها بوجه طلق وثغر ضاحك» ويضيف الشيخ فيقول: «مع أنهم همج وقطاع طريق تلك المسالك وقضوا الليلة عندهم، فأتحفوهم بوقائعهم الحربية». ثم ساروا إلى قرية (سبطارة) ومروا عن قرية اليهودية، فوصلوا سبطارة، فأكرمهم أهلها، ومنها إلى يازور. فنزلوا في جامعها الجليل. ويقول الشيخ وفي الصباح «ورد مولانا الشيخ الخليلي وصحبته جماعة قاصداً مدينة يافا لإتمام عمارة مسجدها الجديد فعقدوا مجلس ذكر». وفي الصباح أقبل عليهم شريكه سيدي أحمد النجار. فزار الصحابي سلمه بن الأكواع، واشتد عليه الألم فاستأذن الأستاذ الصديقي بالذهاب إلى ميناء يافا. ومرَّ على الولي الشيخ مراد وأشار عليه البعض بدخول الحمام وكان قد اشتد عليه الألم فدخله ولكنه لم يستفد منه.

ومكث في يافا مريضاً فعزم الأستاذ الصديقي على زيارة علي بن عليل، فرافقه واشتدت عليه الحمى فلجأ إلى المقام راجياً إمداده. ويقول: «ولعلي بن عليل كل سنة موسم زمن الصيف يقصده الناس من البلاد البعيدة والقريبة ويجتمع هناك خلق كثير لا يحصهم إلا اللّه وينفقون الأموال الجزيلة، ويقرأ عنده المدد».

وورد عليهم في ذلك المقام الشيخ حسن مُقْلِد (الجيوسي) شيخ بني مصعب وكان قد تنزل عن المشيخة لأخيه باختيار وحسن طوية، وسلك طريق السادة الخلوتية، على يد الأستاذ الصديقي. كما ورد عليهم الشيخ أحمد السفاريني الحنبلي وهو متقدم عند أهل تلك الناحية. وفي قومه مهيب.

ثم عادوا فوصلوا كفر سابا، ثم حبلة، وكاد الشيخ يزهق روحه، فنزل تجاه البلد تحت الزيتون، ثم ساروا فوصلوا خربة قبيل الغروب، فنزل بزاوية هناك، وبات تلك الليلة، محموماً فورد عليه الشيخ غنام، وكان يعرفه من مجاورته معه في الجامع الأزهر.

وسار بعد ذلك إلى قرية كور فنزل بجامعها، ولم يجب دعوة الشيخ حسن، وقال المسجد أولى بالغروب، وكان مصيباً لما به من المرض. فقد أصابه إغماء، وكان يصرخ وينوح قبل ذلك من الألم واستأذن أستاذه بالمسير، إما إلى يافا، أو نابلس، فأذن له

بالمسير إلى الثانية لطيب هوائها، فسار مع رفيقين أحدهما الشيخ يوسف بن حمدان الطويل، والشيخ أبو بكر طبيلة، ولم يكن يستطيع الاستقرار على متن الجواد. وزاد سقمه حتى وصل نابلس فنزل عند صديقه السيد محمد أمين الدين في عليّة عالية.

وكان وهو بالقدس سمع بالشيخ عبد الرحمن السمان، وما له من الكرامات، فهمّ للاجتماع به والتوجّه للشام، ومن حسن الاتفاق حضر الشيخ لنابلس يوم وصوله فأخبروه بدائه العضال، فحضر للحال ووضع يده على صدره وقال: «ابشر بالسلامة فإنَّ لي بذلك دلالة وعلامة» ثم قال: كم تريد أن تقيم بسقامك؟ فقلت «ولا لحظة». فقال «احمل حملتك وأرجو من اللّه أن يزيل علّتك بشرط أن تدفع لي شيئاً من الذهب» فقلت «نعم إذا المرض ذهب» فقال لي حضرة الأستاذ: ادفع له ما طلب، وأنا عليَّ الضمان. فدفعت له في الحال، فقرأ لي الفاتحة، وقال يوم الجمعة يذهب عنك المرض، وتوجه بعد ذلك للقدس. وتركه غارقاً في لجّة المرض. وكاد يداخله الإنكار لكرامة الشيخ السمان فبات ليلته. وحلم أن السيدة مريم ابنة عمران بشرته بالشفاء، ولما لاح الصبح شعر بتحسن في صحته فزالت الحمّى، أما القولنج فلازمه ولم يستطع أن يتنفس. وعاد الشيخ السمان من القدس

فوجده يعاني القولنج «فقال باسم اللّه ذهب الألم وحصل للعليل شفاء فذهب القولنج». وصار يذهب إلى الرياض، ويتلذذ بسماع الأطيار، ويتردّد على التكية الدرويشية ذات الأزهار والكروم العروشية.

ثم زار مشاهد نابلس، منها مشهد أولاد يعقوب، وضريح بشر الحافي، ثم الشيخ غانم (٧٧٠هـ)، وله به صلة من جهة أجداده لوالده، ثم ذهب إلى قرية بلاطة، وبها مشهد على قارعة الطريق، يقال إنّ به يوسف الصديق، وهو الذي تعتقده طائفة السامرة، ويقول الشيخ أنّ بعض الأخيار أخبروه بأن هذه الطائفة لا يوجدون في غير هذه الديار، وأنهم لا يزيدون على سبعين، وأن عدّتهم في نابلس لا تتجاوز الأربعين.

ثم ذهب إلى (الخضرة) وهو «محل به بستان يانع الأزهار رحب الجنبات كثير الثمار ومن بديع حسنه النفيس، أنّ بداخله مسجداً أنيساً، وبجانبه محل به خلوة، يقال لها خلوة المحزون. كانت مجلس يعقوب».

وذهب مع بعض الإخوان إلى حديقة بهيجة ورأى فيها شجرة تحمل أكر الذهب، فسأل عنها فقيل هي شجرة أترج، فقدم له واحدة (والأترج من فصيلة الليمون «البرتقال»). (وقد دلت

الحفريات في قصر هشام على وجود (الليمون) البرتقال في هذه البلاد منذ القرن الثاني للهجرة[1].

ومن الذين انشرح صدر الشيخ بلقائهم في نابلس الملاّ (الولي) الزاهد عباس تلميذ الزاهد الياس. والشيخ يمدح نابلس وهواءها وأهلها وكرمهم.

واشتاق الشيخ بعد ذلك إلى الرجوع إلى الشام، فخرج على الخيل مع الشيخ عبد الرحمن السمان، والملا (المولى) عباس، وخرج الإخوان لوداعهم، فوصلوا جنين، ونزلوا في خانها المعد للمسافرين، وبجانبه مسجد كساه الجمال جلباباً، ترى الروض محيطاً بجوانبه والماء جارياً في مشارق الخان ومغاربه، فاجتمع فيها بالولي الشيخ أحمد قبونه، وساروا إلى عيون التجار فوصلوا إلى خانها ونزلوا فيه وبداخله مسجد سامي البناء آل إلى الزوال والفناء. ولما أشرقت الشمس قصد خان المنية، ونزل على شاطئ بحيرة طبريا. وقضى النهار هناك. ولما ظهر الليل امتطوا الخيول فوصلوا قرية عين نعران فإذا هي خاوية، فاستراحوا وإذا بأمير الراكب يتهيأ للمسير، فصاروا في دوحة مغضة بالأشجار إلى أن وصلوا القنيطرة. ونزلوا بخانها الخراب ولما أضاء القمر، قصدوا قرية سعسع، فوصلوها وقت الزوال، وصلّى الشيخ في

---

(١) يقول بعضهم إنها شجرة رمان، وأنا أرجح إنها شجرة (ليمون).

مسجدها النفيس، وبها تكية بجانب المسجد، وتجاهها فسقية ماء وبمحاذاته نهر الأعوج، فجلس الشيخ على شاطئ النهر، ولاحت له دمشق[1] ورياضها الغناء، فأشرف على الثنية، ووصل دمشق في الصباح، فسار إلى أن وصل المدرسة (الشميصاتية) ونزل بخلوة فيها. ثم توجه للجامع الأموي، وزار المقامات، ويقول إن الوليد بن عبد الملك هو الذي بنى هذا الجامع سنة ست وسبعين، وأتم بناءه في عشر سنين. ثم زار الصحابة والتابعين والأولياء فزار خولة الصحابية، ورابعة الشامية، والشيخ رسلان، ثم ابن دقيق العيد، فالسلطان صلاح الدين، فنور الدين الشهيد. ثم إلى مقبرة باب الصغير فزار بلال، ثم معاوية، ثم أم سلمة وحبيبة، ثم ميمونة، ومرَّ بضريح صهيب الرومي الصحابي، ثم الشيخ مسعود ومحمد الدبّاس، والشيخ السروجي والملا الياس. ثم ضريح السيدة رقية، والأعمش أبو شامه عبد الرحمن بن أبي بكر، ثم جامع ابن منجق المسمى بجامع السادات، وفيه ضريح سبعة من الصحابة، ثم قبيصة العبسي، وكرام ابن حبان وحجر ابن عدي الكندي، ومحرز بن شهاب التميمي، وضيف ابن يشكر التميمي، وتمام بن عبد الله الزبيدي، وشريك بن شداد الحضرمي.

---

(١) كان أمير الحج ووالي الشام الوزير عبد الله باشا الايدينلي (سنة ١١٤٣هـ).

ثم زار من التابعين أبيّ بن كعب، والشيخ الحصني، والشيخ العسالي، وقصد الصالحية، فمرَّ على محل الشهداء وفيه الصحابيون حرملة بن وائل، ومسعود بن جابر، ومساعد، ثم قصد ضريح محي الدين بن عربي، فدعا لهم جميعاً ثم مولانا الشيخ عبد الغني النابلسي، وتأسَّف لأنه لم يدركه قبل وفاته، وطالما كان يعلل النفس بلقائه.

ثم زار قاسيون، وما به من المشاهد، مغارة الدم أو مغارة الأربعين. ثم قبر الست، وزار الشيخ مدرك، وانعطف إلى قرية (المليحة)، لزيارة ضريح سعد بن عبادة ثم المرجة، وفيها ابن عساكر، وابن الصلاح، فالمزة لزيارة سيدنا دحية. فالقلعة لزيارة قبر أبي الدرداء الصحابي.

وقصد دار الحديث، التي كان يدرس فيها الإمام النووي ويعد أن زار معاهد دمشق ومدارسها وغياضها، وتمتع بمناظرها، وارتوى من مائها، وذاق فواكهها، تحركت به الخواطر للرجوع، فبعد أن ودعه الأصحاب توجه إلى قرية(دمر) ثم (الديماس)، ثم (خان الظهر الأحمر)، فنزل بحمام لطيف بجانب الخان، مستكمل العمارة، إلا أنه معطَّل وكان معه صديق اسمه المولى أبو بكر الصديق «فاقسم على الشيخ أن يدعوه بالسيد حسن لكونه في أودية المتاولة» ثم سار فوصل (خان حاجيا) فنزل بجانب الخان

على شاطئ النهر واستمر في سيره فوصل (النباطية) وقت الزوال، ومرَّ عن نهر الخردلة . ونزل على شاطئه ونام تلك الليلة، وفي الصباح زار سوق البلدة، وكان ذلك اليوم مقصوداً، تباع به المتاجر، ثم وصل صيدا عند الفجر فنزل عند البوابة . إلى أن لاح الفجر، ففتح له الباب أي باب مدينة صيدا . وحضر جماعة من أصحابه وكلُ دعاه فلبى دعوة صديقه السيد بكري فخصه بعلية، وحضر لعنده الشيخ عبد الغني الحنفي مفتي صيدا، وبينهما محبة وصداقة ومجاورة بالأزهر عام (١١٢٧هـ) ثم يصف رياض صيدا ومتنَزَّهاً يقال له (المعصف) فصعد إلى قصر هناك . ثم ذهب لرياض السبع عيون وورد في هذه الأثناء من بيروت عزيزه السيد أحمد حندس القصار إذ بينهما علاقة مصاهرة ونسب، وعزم على الشيخ التوجه معه، إلى بيروت لزيارة الأوزاعي، فاعتذر لخوفه بسفر (الغليون) أي المركب، وأن يمتد به الوقت إلى شهر كانون وتوجه مع المفتي إلى الجزيرة بقرب صيدا وفيها القلعة الحصينة، واجتمع بجناب الحاج سليمان باشا ابن العظم، الذي كان مقيماً بتلك القلعة بأمر من مولانا السلطان، لسعاية خائن، وهو في رأيه بريء، ثم دعي للوزير، واستأذن بالمسير، فودَّعه وبعد ذلك بقليل حضر (قبجي) من دار الخلافة يحمل رسالة لجناب الوزير بالعفو عنه، وتوليته محافظة طرابلس الشام، كما كان في سالف الأيام .

وحضر لصيدا غليون البيليك المعروف بالرياله، المشحون بالرجال، والمحصن بالعدة والآلة، فاشترى ما هو مطلوب للمسافر، ووافى ساحل البحر قرب الغروب، فرأى الغليون قد نشر مطوي الشراع، وأسرع في البحر، فحصل له غم شديد، فأشار عليه بعض الإخوان بلحاقه فنزل في سفين صغير، وكان البحر هائجاً فخاف الشيخ، فاستنجد باللّه، وإذا بالغليون، يظهر لهم فأسرعوا نحوه، وتمسكوا بأسبابه، وصعدوا ودخلوا من أحد أبوابه، فتلقاه رئيسه محمد قبطان المغربي، هاشاً باشاً ورحّب به. ويقول الشيخ إنَّ للقبطان مشاركة في الفنون لا سيما الرياضية، فجرت بينهما مباحثة في الأوفاق خصوصاً المخّمس، وأطلعه على وفق مخّمس، وما زالوا يستقبلون الليل والنهار إلى أن أقبلوا على جزيرة قبرص، واستقبلوا تجاه أحد ميناها الموصوفة، ويقول إنه بلغه «أنَّها حوت من المنكرات من بيع الخمر جهرا وكثرة النساء المتبرجات» فأنفت نفس الشيخ من الطلوع إليها. ثم أقلع الغليون نحو دمياط، فوصلها سالماً وانشرح صدر الشيخ وقّرت عينه، برؤية النيل فوصل إلى منزله وحمد اللّه.

***

فهرس

الصفحة

عدد الطبع

٢٠٠٠ نسخة

القدس عاصمة ثقافية للعرب

فلسطين والقدس والخليل والمدن المقدسة في فلسطين من خلال رؤى لمثقفين سوريّين ومصريين، زاروا، ووصفوا، وكتبوا، فكانت كتاباتهم ليس عن فلسطين فقط، بل عن الثقافة والمثقفين وهمومهم في ذلك العصر المضطرب أواخر السابع عشر وأوائل الثامن عشر.

إنه العصر نفسه الذي كتب عن قسوته حلاق اسمه البديري، فكان شهادة شعبية عن دمشق، أما هذه المرة فهو شهادة مثقفين ولكن عن التقديسة، أي زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين والقدس.

كتاب ليس عن الموضوع، بل عن الذات أيضاً. إنه كتاب عن مرآتين متقابلتين فيهما ترى الموضوع وترى الذات الرائية.

كتاب جدير بالقراءة المتعاطفة والمتفهمة.





٢٠٠٩

السعر (٥٠) ل.س